# مع آية:

## ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾

الأستاذ: محسن الأسدي

﴿ يَـأَيُّـهَا الَّـذِيـنَ ءَامَنُـوا إِنَّمَـا الْمُشْـرِكُونَ نَجَـسٌ فَلاَ يَقْرَبُـوا الْمَسْـجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.[1]

هذه الآية هي خاتمة المقطع الأول من سورة التوبة (١-٢٨) التي أنزلت أواخر العهد النبويّ المبارك، في موسم الحجّ في السنة التاسعة من الهجرة النبوية، وحملها الإمامُ عليٌّ عليه السلام، وبلّغها حين بعثه

---

١. التوبة : ٢٨.

رسول الله صلى الله عليه وآله عامئذ، وأمره أن ينـادي بهـا في مـنى وعرفـات ومكـة.. فكانت أربعة أمور، و بصيغ متقاربة، منها: أن «لا يحجّن بعـد هـذا العـام مشرك ...».

لقد جاءت تحمل خطاباً للمؤمنين أن يمنعوا أو ينفوا المشـركين عـن المسجد الحرام أو الحرم كلّه بأن لا يقربـوه .. وهـذا المنـع متفـرع علـى نجاستهم؛ ليختم مقطعاً قرآنيّاً جاءت آياته؛ لتحدد العلاقات النهائيـة بـين المجتمع الإسلامي الذي اسـتقر وجـوده في المدينـة وفي الجزيـرة العربيـة ـ بصفة عامة ـ وبين بقية المشركين في الجزيرة: الذين لم يـدخلوا في هـذا الدين.. سواء منهم:

من كان له عهـد مـع رسـول الله صلى الله عليه وآله حينمـا لاح لـه أنّ مواجهـة المسلمين للروم ـ حين توجهوا لمقابلتهم في تبوك ـ ستكون فيها القاضـية على الإسلام وأهله، أو على الأقل ستضعف من شوكة المسلمين وتهد من قوتهم..

ومن لم يكن له عهد ولكنه لم يتعرض للمسلمين من قبل بسوء..

ومن كان له عهد – موقوت أو غير موقوت – فحافظ على عهده، ولم ينقص المسلمين شيئاً ولم يظاهر عليهم أحداً، فهؤلاء جميعاً نزلت هـذه الآيات وما بعدها لتحدد العلاقات النهائية بينهم وبين المجتمع المسلم...[١]

---

١. أنظر في ظلال القرآن، للسيد قطب؛ ومجمع البيان، للطبرسي؛ وتفسـير القـرآن الكـريم، لابن كثير: الآية.

لقد سبقت هذه الآية، آيات عديدة، كانت تتضمن أموراً كلّها تعالج مسألة هؤلاء المشركين.

وهذه الآيات هي: ١٧- ١٩ التوبة؛ التي جاءت بعد أن أمر الله سبحانه بقتال المشركين وقطع العصمة والموالاة عنهم؛ لتسجل رفضاً لوجودهم في المسجد الحرام، عمارةً له أو سقايةً للحاج، أو ولايةً عليه، وهي بلا شك تعدُّ مكارمَ لأهل مكة، راحوا في الجاهلية وحتى نزول سورة براءة وتبليغها، يتشرفون ويتفاخرون بها، لكنها مناقب يستحقها المؤمنون دون غيرهم، وهو ما بيّنته الآيات القرآنية وغيرها؛ ولتصرح أنَّ المشركين غير مؤهلين حتى مجرّد القرب من حدود الحرم، فضلاً عن دخوله والمسجد الحرام والقيام عليه؛ ولهذا منعوا عنه، وقد تحقق هذا كلُّه عبر أساليب اتخذها التنزيل العزيز، منها:

أولاً: بنفي عمارتهم له: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[١]

العمارة :

لغةً: من الفعل عَمَرَ، وعَمَرَ المنزلُ بأهله، وعَمَرَ فلان الدارَ: بناها .. والعمارة: البنيان، وما يحفظ به المكان، فهي نقيض الخراب، يقال: عمر أرضه يعمرها عمارةً، عمرته فعمر فهو معمور..

وتفسيراً: اختلف في العمارة المذكورة في الآية: ﴿أَجَعَلْتُمْ ... وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ..﴾ فهي:

إما من العمارة التي هي حفظ البناء. أو من العمرة التي هي الزيارة. أو من قولهم: عمرت بمكان كذا أي أقمت به؛ لأنه يقال: عمرت المكان وعمرت بالمكان، والعمارة أخصّ من القبيلة، وهي اسم لجماعة بهم عمارة المكان، قال الشاعر: لكلّ أناس من معد عمارة.. من قصيدة الأخنس بن شهاب الثعلبي:

«لِكلِّ أُناسٍ من مَعَدٍّ عِمارَةٌ ـ عَرُوضُ إليها يَلْجَؤُونَ وجانِبُ»

قالوا: هي بدخوله ونزوله كما يقال: فلان يعمر مجلس فلان إذا أكثر غشيانه؛ لأن المسجد تكون عمارته:

بطاعة الله وعبادته.

---

١. التوبة: ١٧ – ١٩.

باستصلاحه ورَمّ ما استرم منه؛ لأنه إنما يعمر للعبادة.

بأن يكونوا من أهله، أي لاينبغي أن يترك المشركون، فيكونوا أهل المسجد الحرام ..

إذن فهناك معنيان لغويان «للعمارة» وهما: البناء، والتردد والزيارة.

ثمَّ راحت هاتان الآيتان تبيّنان من هو الجدير بعمارة مساجد الله؛ مواضع عبادته سجوداً فيها وركوعاً وتضرعاً..، وبالذات المسجد الحرام، وما يتبعه من منازل الحج والعمرة: المسعى، وعرفة، والمشعر الحرام، والجَمَرات، والمَنْحر من منى...

فنفت الآية الأُولى أن يكون للمشركين حظٌّ في عمارتها؛ وليس لهم إلا حبوط أعمالهم، والإقامة المؤبدة في النار؛ لكفره، وقد شهدوا به، ولكن اختلف في كيفية شهادتهم على أنفسهم بالكفر على معانٍ:

إنَّ النصراني يُسأل ما أنت؟ فيقول: أنا نصراني، واليهودي يقول: أنا يهودي. وكذلك المشرك إذا سئل ما دينك؟ يقول: مشرك، لا يقولها أحد غير العرب.

إنَّ كلامهم يدل على كفرهم كما يقال: كلام فلان يدل على بطلان دعواه.

إنَّ قولهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

سجودهم لأصنامهم مع إقرارهم بأنها مخلوقة، وطوافهم بها، ووضعهم إيّاها في جوف الكعبة وحولَها وعلى سطحها..

شهادتهم على أنفسهم بأفعالهم وأحوالهم ومن أظهر شيئاً وبيَّنه يقال: قد شهد به.

إذن فالشرك موجب لحرمانهم من عمارة مساجد الله. فيما منحت الآية الثانية شرف هذه العمارة، وأثبتته للذين آمنوا، فهم المُهيّؤون لعمارتها بكلّ معاني العمارة أعلاه! لأنهم المقرّون بوحدانية الله تعالى، والمعترفون بيوم القيامة، والمقيمون الصلاة، والمؤتون الزكاة، ولأنهم لا يخشون إلا الله سبحانه وتعالى. فمن كانت هذه اعتقاداته، وهذه صفاته قولاً وفعلاً وسيرةً، فهم الذين يعمرون المساجد بحقٍّ .. [١]

وثانياً: برفض تفاخرهم بالسقاية والعمارة:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ * ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. [٢]

---

١. أنظر المعجم الوسيط؛ ومفردات القرآن، للراغب؛ ومجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي؛ والتحرير والتنوير، لابن عاشور. بتصرف.

٢. التوبة : ١٩ – ٢٢.

السِّقَايَةُ: لغةً: صاع، وفي التنزيل العزيز: ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾.[1]

وقد يُكال به، وفي موردنا: السِّقاية: إناءٌ يُسقى به، وآلة تتخذ لسَقي الماء..

وفي مفردات القرآن: «السقي والسقيا أن يعطيه ما يشرب، والإسقاء أن يجعل له ذلك حتى يتناوله كيف شاء، فالإسقاء أبلغ من السقي؛ لأن الإسقاء هو أن تجعل له ما يسقى منه ويشرب، تقول: أسقيته...».

والسقاية: حرفة السَّقَّاء، وسِقاية الحاج: سقيهم الماءَ بنبيذ فيه الزبيب، وكانت من مآثر قريش.[2]

الشعراوي: وكلمة: ﴿سِقَايَةَ﴾ تطلق إطلاقات ثلاث: فهي المكان الذي يجتمع فيه الماء؛ ليشرب منه الناس والذي نسميه. السبيل. وتطلق على الإناء الذي نشرب منه الماء، والذي يرفع إلى الفم كالكوب والكأس أو يسمى صواع الملك، وفي قصة يوسف عليه السلام يأتي القول الكريم: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾.

والسقاية: الحرفة نفسها؛ فنقول: هذه خياطة، وهذه حدادة، وهذه سقاية، أي أنه عمل يتصل بسقاية الناس، فالسقاية ـ إذن ـ هي المكان

---

١. يوسف : ٧٠.

٢ . مجمع البيان، للطبرسي؛ والمعجم الوسيط؛ ومفردات القرآن، للراغب.

الواسع الذي يتجمع فيه المـاء، أو الإنـاء الـذي نسـتعمله في الشـرب، أو الحرفة التي يقوم بها السّقّا..[١]

وكان مشروع سقاية الحجيج والمعتمرين بتوفير الماء لهم من الأمور المهمة، وتعدّها قريش شرفاً كبيراً حتى صـار و عمـارة المسـجد الحـرام موضعَ تفاخر بينهم، والمفاخرة من طبيعة كثير من البشر حتى في الأشـياء التي ليس لهم فيها فضل، والممنوحة لهم مـن الله عزّوجـلّ مثـل الشـكل والنسب إلى آخره،..

ومن أوجه التفاخر عند العرب سقي الحجيج ورعاية البيت الحـرام وعمارته والحجابة والسدانة .. ولهذا جاءت الآية الكريمة مستنكرةً ذلـك؛ تفتخـرون بـأنكم تحترفـون سـقاية الحـاج، وعمـارة المسـجد الحـرام، وتجعلونهما في مقابل الإيمان: كفة سقاية الحجيج وعمارة المسـجد الحـرام لا تتساويان بكفة الإيمان بالله واليوم الآخر، فهذه تعلو علـى كـل شـيءٍ، وتتفوق على الجميع مهما كانت منزلته!

وها هو الإمامُ عليٌّ عليه السلام ـ كما في أسباب النزول ـ قد مـرَّ على طلحة بن شيبة والعباس بن عبد المطلب ووجـدهما يتفـاخران، أي: يفاخر كلّ منهما الآخر بالمناقب التي يعتزُّ بها:

---

١ . خواطر محمد متولي الشعراوي: الآية، بتصرف بسيط.

قال طلحة: أنا صاحب البيت وبيدي مفتاحه ولو أشاء بت فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها. وقال علي عليه السلام: «ما أدري ما تقولان، لقد صلّيت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس، وأنا صاحب الجهاد».

وقيل: إنّ علياً عليه السلام قال للعباس: «يا عم ألا تهاجر وألا تلحق برسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: ألست في أفضل من الهجرة أعمر المسجد الحرام وأسقي حاج بيت الله؟!».

وفي رواية عن ابن بريدة، عن أبيه قال: بينا شيبة والعباس يتفاخران إذ مرَّ بهما علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: «بماذا تتفاخران؟ فقال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤتَ أحد؛ سقاية الحاج! وقال شيبة: أوتيت عمارة المسجد الحرام! فقال علي عليه السلام: استحييت لكما فقد أوتيت على صغري ما لم تؤتيا. فقالا: وما أوتيت يا علي؟! قال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله ورسوله! فقام العباس مغضباً يجرُّ ذيله حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: أما ترى إلى ما يستقبلني به عليٌّ؟ فقال: ادعوا لي عليّاً فدعي له فقال: ما حملك على ما استقبلت به عمّك؟!

فقال: يا رسول الله صدمته بالحقِّ، فمن شاء فليغضب، ومن شاء فليرض!

فنزل جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمد إن ربّك يقرأ عليك السلام ويقول: أتل عليهم:

﴿أجعلتم سقاية الحاج ...﴾! فقال العباس: إنا قد رضينا ثلاث مرات!

وجاء في تفسير أبي حمزة، أنّ العباس لما أسر يوم بدر، أقبل عليه أناس من المهاجرين والأنصار، فعيَّروه بالكفر وقطيعة الرحم. فقال: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟! قالوا: وهل لكم من محاسن؟! قال: نعم والله لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحاج، ونفكّ العاني، فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا ...﴾ إلى آخر الآيات.

وقد عدت هذه من أفضل مناقب الإمام عليٍّ عليه السلام، فقد جاء عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن أمير المؤمنين صلوات الله عليه قيل له: يا أمير المؤمنين أخبرنا بأفضل مناقبك؟ قال: نعم كنت أنا وعباس وعثمان بن أبي شيبة في المسجد الحرام، قال عثمان ابن أبي شيبة: أعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله الخزانة، يعني مفاتيح الكعبة؛ وقال

العباس: أعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله السقاية وهي زمزم، ولم يعطك شيئاً يا عليّ؛ قال: فأنزل الله الآيات.[١]

وثالثاً: بالنهي عن موالاتهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.[٢]

أَوْلِيَآءَ: والأولياء جمع ولي، وهو من كان مختصاً بايلاء التصرف في وقت الحاجة ... وكل من ولى أمر الآخر فهو وليه.. والولي هو الذي يدبر الأمر...

يَتَوَلَّهُمْ: من وَالَى الشيءَ: تابعه. و- فلاناً: أحبّه. و- نصره. و- حاباه تَوَلَّى الشيءَ: لزمه. و- فلاناً: نصّره. و- أحبّه. و- اتَّخذه وليًّا. و- الأمرَ: تقلَّدَه وقام به...

هذا وقد ذكروا أنَّ الولاية بالفتح تأتي بمعنى المحبة والنصرة، فيما الولاية بالكسر تأتي بمعنى الإمارة والسلطان وأولوية التصرف، وأظنُّ أنّ

---

١. أنظر في هذا كلّه تفسير مجمع البيان، للشيخ الطبرسي؛ وروح المعاني، للآلوسي؛ وخواطر محمد متولي الشعراوي: الآية؛ والبحار ٩ : ٣١٧؛ والبرهان ٢ : ١١٠؛ والصافي، للكاشاني ١: ٦٨٨؛ وتفسير العياشي..

٢. التوبة : ٢٣.

الولاية المحظورة والمنهيّ عنها في الآية لعلّها تحمل القسمين معاً، والله العالم ..

وهذا أيضاً خطابٌ للمؤمنين يحمل نهياً لهم عن موالاة المشركين أفراداً كانوا أو جماعات؛ وإن تولوهم فإنهم قد وضعوا الموالاة في غير موضعها، وبالتالي يظلمون أنفسهم ويبخسون حظها من الثواب...

وفي **سبب النزول**: روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، حيث كتب إلى قريش يخبرهم بخبر النبيّ صلى الله عليه وآله لما أراد فتح مكة.. فيما ذُكر أنه كان قبل فتح مكة من آمن لم يتمّ إيمانه إلاّ بأن يهاجر ويصارم أقاربه الكفرة ويقطع موالاتهم. فقالوا: يا رسول الله إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا، وبقينا ضائعين، فنزلت، فهاجروا، فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه، فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه، ثم رخص لهم بعد ذلك. وقيل: نزلت في التسعة الذين ارتدّوا ولحقوا بمكة، فنهى الله تعالى عن موالاتهم.

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله: «لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحبّ في الله ويبغض في الله، حتى يحبّ في الله أبعد الناس، ويبغض في الله أقرب الناس إليه». لا ولاية بين المؤمنين والكافرين، فقد نهت الآية المؤمنين عن

موالاة الكافرين وإن كانوا آباءهم أو إخواناً لهم، إن اختاروا الكفر وآثروه على الإيمان.

يقول الطبرسي: وهذا في أمر الدين، فأما في أمر الدنيا فلا بأس بمجالستهم ومعاشرتهم؛ لقوله سبحانه: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾.

**فيما يقول القرطبي:** ظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافَّةً، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين. ورَوَت فرقة أنّ هذه الآية إنما نزلت في الحضّ على الهجرة ورفض بلاد الكفرة. فالمخاطبة على هذا إنما هي للمؤمنين الذين كانوا بمكة وغيرها من بلاد العرب؛ خُوطبوا بألاّ يوالوا الآباء والإخوة، فيكونوا لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفر. ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا﴾ أي أحبّوا؛ كما يُقال: استجاب بمعنى أجاب. أي لا تطيعوهم ولا تخصوهم. وخصَّ الله سبحانه الآباء والإخوة، إذ لا قرابة أقرب منها. فنفى الموالاة بينهم كما نفاها بين الناس بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ﴾.[١] ليبيّن أنّ القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان. وفي مثله تنشد الصوفية:

| | |
|---|---|
| يقولون لي دار الأحبّة قد دنتْ | وأنت كَئيبٌ إنّ ذا لعجيب |
| فقلت وما تغني ديارٌ قريبة | إذا لم يكن بين القلوب قريب |

١. المائدة : ٥١.

| | |
|---|---|
| فكم من بعيد الدار نال مُرادَه | وآخر جارُ الجَنْب مات كئيب |

ولم يذكر الأبناء في هذه الآية؛ إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التَّبع للآباء. والإحسان والهبة مستثناة من الولاية.

قالت أسماء: يا رسول الله، إنّ أميّ قدِمت عليّ راغبةً، وهي مشركة أفأصلها؟ قال: «صِلِي أُمَّك».

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال ابن عباس: هو مشرك مثلهم؛ لأن مَن رضي بالشرك فهو مشرك.[1]

**ورابعاً: بالنهي عن قربه:**

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.[2]

فجاءت هذه الآيات إنهاءً لولايتهم على المسجد الحرام، ورفضاً لعمارتهم المسجد، ولما تتركه من إنعامهم على المسلمين ومنّتهم عليهم، فمنعاً لدخولهم المسجد، الذي ما دخلوه إلا لتحقيق مصالح لهم وجاهةً

١. المعجم الوسيط؛ كتاب التحقيق في كلمات القرآن الكريم، للمصطفوي١٣: ٢٢٣-٢٣٠؛ ومفردات الراغب مادة ولي؛ ومجمع البحرين، للطريحي؛ ومجمع البيان، للطبرسي؛ والكشاف، للزمخشري؛ والتبيان، للطوسي؛ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي : الآية.

٢. التوبة : ٢٨.

وسيادةً وشرفاً ومالاً..، ولا يكون تعظيماً له، بل توهيناً وإغاضةً لأهله المؤمنين، خاصةً بعد أن منَّ الله تعالى على المؤمنين بفتح مكة وما حولها..، وهكذا هي سورة براءة نفسها التي تنتمي إليها هذه الآيات، جاءت إلغاءً لأي عهد مع المشركين في الجزيرة العربية؛ وإمهالاً لذوي العهود ممن لم ينقضوا عهداً أبرموه مع المسلمين ولم يظاهروا عليهم وإتماماً لمدتهم، وانتهاءاً لمبدإ التعاقد أصلاً معهم بعد ذلك، وإزالةً لكل عائق يحول دون مضي المسلمين في دعوتهم وعبادتهم، وبناء مستقبلهم الرسالي.. جاءت هذه السورة، وخاصةً في مقطعها الأول حتى نهاية الآية الثامنة والعشرين معلنةً البراءة المطلقة من المشركين، مستنكرةً أن يكون للمشركين عهد عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وآله حاثّةً لا فقط على مقاطعتهم بل على قتالهم، حاسمة الموقف معهم بعيداً عن حالة التخوّف والتردد التي اتصفت بها طائفة من المسلمين.

وقد ختم هذا المقطع بالآية: ﴿... **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** ...﴾ وهي واحدة من أدوات حاسمة، لإرساء موقف جديد ضدَّ مشركي الجزيرة العربية، لا يتمثل فقط بفرض المقاطعة عليهم، بل بوضع جدار فاصل بين المسلمين وبينهم .. بأن تشير إلى عقيدتهم الفاسدة: الشرك، والذي بسببه نجست نفوسهم، وفيه من التعبير البديع المصور المجسم لهم، حتى لكأنهم بأرواحهم وماهيتهم وكيانهم: النجس يمشي على الأرض، فيتحاشاه المتطهرون، ويتحاماه الأتقياء من الناس.. عبر النهي الوارد في الآية؛

والذي وإن كان موجهاً إلى المشركين، إلا أنّ المقصود منه نهي المؤمنين عن تمكينهم من المسجد الحرام، بأن لا يحجّ المشركون، ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهلية. ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ وهو العام التاسع من الهجرة..[1] كما أنه نداءٌ للمؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليباشروا تنفيذ هذا التكليف بأنفسهم، زيادةً في رسوخه وتجذيره وفاعليته والتزامهم به؛ وبالتالي "يضع بين المسلمين والمشركين حاجزاً نفسيّاً، يبرّر كلّ التعاليم الشديدة في مقاطعتهم لهم، والبراءة منهم، ومواجهتهم بالقتال، فإنّ الشرك يمثل في إيحاءاته ونتائجه العملية القذارة المعنويّة، ويوحي بقذارةٍ روحية، تجعل الإنسان المشرك يعيش في وسخ الفكر والروح والشعور عندما تعيش روحه في آفاق الأصنام لتنسحق أمامها، وعندما يختنق فكره في داخل الصنميّة لينتن في مستنقعاتها، وعندما يتحرك شعوره في قوالب جامدةٍ من الحجر والخشب واللحم والدم، ليس فيها شيء من حيويّة الحياة، ونقاء السموّ، وحركة الإشراق".[2]

إنّ دراسة البعد التاريخي للوضع القائم يومذاك ينفع كثيراً، وقد يلقي الضوء على الحالة السائدة، وبالذات الاجتماعية، ومدى سعة الأواصر بينهم أفراداً كانوا أو أُسراً أو كيانات وقبائل، فقد كانت العلاقات بكلّ مفاصلها بدرجة واسعة بينهم.

---

١. تفسير الوسيط في تفسير القرآن الكريم، طنطاوي (ت ١٤٣١ هـ).

٢. من وحي القرآن : الآية.

يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر رضوان الله عليه: «إن إبتلاء المسلمين بالتعايش مع أصناف من الكفار في المدينة وغيرها على عهد النبيّ صلى الله عليه وآله كان على نطاق واسع، واختلاطهم مع المشركين كان شديداً جداً، خصوصاً بعد صلح الحديبية، ووجود العلائق الرحمية وغيرها بينهم...».[1]

وبما أنّ المسجد الحرام يشكل مكاناً مقدساً ومباركاً، وموضع اهتمام عرب الجزيرة، حين هم موحدون، وحين انحرفت عقيدتهم فصاروا مشركين، وحين تمكن الإسلام منهم بعد الفتح، ظلَّ مركزاً ذا قيمة عالية وأهمية كبيرة؛ مَن يضع يده عليه تكن له مكانة بين العرب وقبائلهم، وقد منَّ الله تعالى على قريش بهذه المزية، أنّ أعظم شأنهم في عيون من حولهم من قبائل العرب وغيرهم، إلاّ أنهم لم يرعوا هذه العطية، فأشركوا وآذوا رسول الله صلى الله عليه وآله ومن تبعه من المسلمين أيما إيذاءٍ، ووقفوا بوجه رسالة الله تعالى بعنادٍ خطير، وبقوا على شركهم، فكانت عاقبتهم القتل وإلغاء أي علاقة معهم، واستبدالهم بمن يحمل ديناً طاهراً خالياً من مشاريع التسلط والظلم والتعسف، بمن يتوفر على عقيدة تمدُّ يدها إلى الجميع لانتشالهم من الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الذل إلى العزّ... فمن اهتدى فقد حظي بخير عميم، وإلا فهم على معتقداتهم

---

١. شرح العروة الوثقى : ٢٤٢.

وسوء فعالهم نجسٌ كما وصفتهم الآيـة، أي: ليسـوا إلاّ أنجاسـاً فاسـدي الاعتقاد، يشركون بالله ما لا ينفع ولا يضر، فيعبدون الرجس من الأوثان والأصنام، ويدينون بالخرافات والأوهام، ولا يتنزهـون عـن النجاسـات ولا الآثام، ويأكلون الميتة والدم من الأقذار الحسـية، ويسـتحلون القمـار والزنا من الأرجاس المعنوية، ويستبيحون الأشـهر الحـرم. وقـد تمكنـت صفات النجس منهم حسّاً ومعنًى حتى كأنهم عينه وحقيقته، فلا تمكنوهم بعد هذا العام أن يقربوا المسجد الحرام بدخول أرض الحـرم فضـلاً عـن دخول البيت نفسه، وطوافهم عراة فيه، يشـركون بـربّهم في التلبيـة، وإذا صلوا لم تكن صلاتهم عنده إلاّ مكاءً وتصدية...[1]

ومن كانت هذه معتقداته وسيرته، فهو ليس جـديراً بـالتقرب مـن الحرم المبارك، فضلاً عن دخول مسجده، وأداء أي شـيءٍ فيـه، أو القيـام بأي شأن من شؤونه ووظائفه.. ولعلَّ وصفهم بأنهم: ﴿نَجَسٌ﴾، هو وسـيلة مانعة وسدٌّ وضعته السماء بين طائفة الإيمان خاصـةً وهـي مـا زالـت في بدايتها وقد تكون ضعيفة التدين، وبين طائفة الشرك، وهو حـاجزٌ نفسـيٌّ بين الذين آمنوا وبين الذين استبد بهم الطغيان، فالتزموا بشركهم وعدائهم للساحة المؤمنة، وبالتالي ﴿نَجَسٌ﴾، هو نوع مقاطعة لهؤلاء، ويـذكرني هـذا ـ إن كنت موفقاً فيما أرى ـ بموقـف الـنبيِّ موسـى عليـه السـلام مـن

١. محمد رشيد رضا في تفسير المنار : الآية.

السامري، حين فرض تلك المقاطعة عليه؛ لخبث سيرته، وفساد معتقده، ولما قد يتركه مَن هذه صفاته من آثار على الساحة المؤمنة والجماعة المسلمة، وهي في أوليات بنائها الإيماني والروحي:

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ...﴾،[1] أي ـ اذهب مطروداً لا يمسك أحد لا بسوء ولا بخير ولا تمس أحداً ـ وكانت هذه إحدى العقوبات في ديانة موسى. عقوبة العزل، وإعلان دنس المدنس فلا يقربه أحد ولا يقرب أحداً. أن لا يخالطوه ولا يجالسوه ولا يؤاكلوه ولا يبايعوه وغير ذلك مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات تضييقاً عليه، وإبعاداً له عن الساحة ...

لقد عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أطم منها وأوحش، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته، وكلّ ما يعايش به الناس بعضهم بعضاً...[2]

إنَّ اللفظ ﴿نَجَسٌ﴾ لم يرد ولا مشتقاته في غير هذه الآية من التنزيل العزيز. وفي هذه المناسبة فقط، ومع هذا فقد شكل مفهوم النجاسة وسيلة من تلك الوسائل لمعالجة ذلك الواقع في مكة وغيرها، حين قررت السماء عزل المشركين وإبعادهم عن مراكز الطهارة، التي يعتني به الدين ويحافظ

---

١. طه : ٩٧.

٢. في ظلال القرآن، للسيد قطب؛ تفسير الكشاف، للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)؛ مجمع البيان، للطبرسي؛ روح المعاني، للآلوسي : الآية.

عليها ويدعو لها، ففيما النجاسة ذكرت في التنزيل العزيز مرّةً واحدة لا غير، فقد وردت الطهارة إحدى وثلاثين مرّةً في القرآن الكريم، وهنا لا بدَّ لي من الإشارة إلى أنَّ مفردة النجاسة نادر ورودها حتى في الروايات، وهو ما ذكره السيد الشهيد الصدر رحمه الله: «... نلاحظ أنَّ مجيء لفظ "النجاسة" في مجموع الأحاديث المنقولة عن النبيّ صلى الله عليه وآله إما معدوم وإما نادر جدًّا، لا في طرقنا فقط، بل حتى في روايات العامة، التي تشتمل على ستمائة حديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله في أحكام النجاسة، ولم أجد فيها التعبير بعنوان النجس إلا في روايتين: في إحداهما نقل الراوي: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الهر ليس بنجس»، وفي الأخرى: نقل أنّ صحابياً واجه النبيَّ وهو جنب فاستحى وذهب واغتسل واعتذر من النبيِّ فقال صلى الله عليه وآله: «سبحان الله إنّ المؤمن لا ينجس». وهذا يكشف عن ضئالة استعمال لفظة النجاسة ودورانها في لسان الشارع، ...».[1]

ولعلّ هذا تأكيد واضح على مدى دقة الإسلام في التعاطي مع مفهومي الطهارة و النجاسة، وبقدر ما تعنيه الطهارة من سمو ونبل..، فإنّ النجاسة تؤكد على الخسّة والوضاعة.. ولهذا اعتبرت الطهارة هي المطلب الأساس للوقوف بين يدي الله تعالى، وقامت أسس البيت الحرام بل

---

١. شرح العروة الوثقى ٣ : ٢٥٩.

الحرم كلُّه عليها حين أمر الله تعالى إبراهيم وابنه إسماعيل وألزمهما بتطهيره:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[1]

﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.[2]

مما يعني أنَّ طهارة البيت وعمارته.. لا تتمّ إلاّ بأيدٍ نظيفة وقلوبٍ لا تحمل خبث الشرك وقذارته وكيده... وما يُؤدى فيه من أعمال عبادية كمناسك الحج والعمرة والصلاة، لا تصحُّ إلاّ من الموحدين، فهم الذين يتقربون بها إلى الله تعالى وحده لا شريك له، فيما المشركون عقيدتهم ملوثة بالشرك وهي بالتالي غير خالصة لأن تعبد الله وحده، دون أن تضع له شريكاً أو شركاءَ شرعوا لهم من الدّين ما لم يأذن به الله...

يقول ابن عاشور عن المقصود بوصفهم بهذا الوصف لهم في الإسلام هو: تحقيرهم وتبعيدهم عن مجامع الخير.

ثمَّ يقول: ولا شكّ أنّ خباثة الاعتقاد أدنى بصاحبها إلى التحقير من قذارة الذات، ...

---

١. الحج : ٢٦.

٢. البقرة : ١٢٥.

وقد فرّع على نجاستهم بالشرك المنع من أن يقربوا المسجد الحرام، أي المنع من حضور موسم الحجّ بعد عامهم هذا...[١]

ويقول سيد قطب: "وتلك غاية في تحريم وجودهم بالمسجد الحرام، حتى لينصبّ النهي على مجرد القرب منه، ويعلل بأنهم نجس وهو الطهور!".[٢]

حقّاً "إنّ للفكر طهارته التي تحوّل الإنسان إلى ينبوعٍ ثرٍّ متجدّدٍ يتفجر بروحيّة العطاء وحيوية الحياة، حتى لتشعر أمامه، وأنت تتمثل الكيان الذي يحتويه، بالانجذاب إليه، كما لو كان شيئاً يضمّ روحك بروحه، ويحتوي شعورك في شعوره، وتحس معه بأنّ كل شيء فيه نظيفٌ، لأنه يتحرك من موقع النظافة الداخليّة التي لم تقترب إليها أوساخ الأخلاق والمشاعر والحركات الخارجية، وأيّة طهارة أروع من نهر الإيمان عندما يتدفق في فكر الإنسان وقلبه، فيعيش الإنسان فيه مع الله؛ مصدر النقاء في كل شيء، وسرّ الطهر في كل حياة، وهكذا يتصل بالأشياء وبالحياة والإنسان، من مواقعها الفطرية الطبيعيّة التي تنطلق من أعماق الوجدان الحيّ الصافي، وكما هو الإيمان يمثّل عمق الطهارة وحقيقة النقاء وينبوع الصفاء، فإنّ الشرك يمثّل النقيض من ذلك، إنه يمثل قذارة

١. تفسير التحرير والتنوير : الآية.

٢. في ظلال القرآن : الآية.

الرواسب المتعفنة من خلال ظلمات السنين وأوحال التاريخ التي يعيش معها الإنسان عفن الفكر والروح والشعور".[١]

وهذا القشيري (ت ٤٦٥ هـ) في تفسيره لطائف الإشارات، والذي يمكن اعتباره أول تفسير صوفي كامل، يقول بعد أن يذكر الآية: فقدوا طهارة الأسرار بماءِ التوحيد؛ فبقوا في قذورات الظنون والأوهام، فَمُنِعُوا قُربانَ المساجدِ التي هي مشاهدُ القرب. وأمَّا المؤمنون فطهَّرَهم عن التدنُّس بشهود الأغيار، فطالعوا الحقَّ فَرْداً فيما يُبَيِّنُهُ مِنَ الأمر ويُمضِيه من الحُكْم...[٢]

**علتان أو ثلاث:**

لهذا فقد ذكروا أنَّ لإبعاد المشركين وإقصائهم عن المسجد الحرام عللاً مستفادةً من التنزيل العزيز، وهي:

**أولاً: الشهادة**، أي أنّهم شهدوا على أنفسهم بالكُفر، كما في سورة التوبة:

---

١. من وحي القرآن، للسيد فضل الله : الآية.

٢. وانظر إشارةً أخرى في تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة (ت ١٢٢٤ هـ).

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.[1]

وشهادتهم على أنفسهم بالكفر حاصلة في كثير من أقوالهم وأعمالهم، بحيث لا يستطيعون إنكار ذلك، مثل قولهم في التلبية: لبيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك، ومثل سجودهم للأصنام، وعبادتهم للأوثان، وطوافهم بها، ووضعهم إيّاها في جوف الكعبة وحولَها وعلى سطحها، وأيضاً بتكذيبهم للقرآن الكريم، وبإنكارهم لنبوة خاتم النبيين محمدﷺ وبمؤآمراتهم عليه وحربهم له...

**ثانياً: النَجاسة،** ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، إذن فلشركهم أولاً ولنجاستهم ثانياً، فهم ليسوا أهلاً لتعمير المسجد المبني أساساً للتوحيد، كما ليسوا أهلاً لأن يعمروا المسجد لطهارته.

فيما ذكر السمرقندي (ت ٣٧٥ هـ ) ما قد يصلح أن يكون علّةً ثالثة وهي الحرب، حيث يقول: وهذه الآية نزلت في شأن أهل الحرب. أنهم لا يدخلون المسجد الحرام بغير أمان، ولا يكون لهم ولاية البيت، وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال: لا يدخلون المسجد الحرام إلا برق أو عهد.[2]

---

١. التوبة : ١٧.

٢. التحرير والتنوير، لابن عاشور؛ وتفسير بحر العلوم : الآية.

**من هم المشركون ؟**

بعيداً عن البحث الكلامي، فهو المتكفل بحقيقة الشرك ومن هو المشرك، ومراتب الشرك، التي منها الشرك في الطاعة والعبودية، وأسوؤها وأقبحها أن ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾، وهذا هو الشرك في الألوهية.. ونكتفي بإيجاز الشرك لغةً وشرعاً وفي التنزيل العزيز:

**الشرك لغةً**، من أشركه في أمره: أدخله فيه، وهو مأخوذ من المشاركة وهو ما كان اثنين فصاعداً.

وشرعاً يقال: أشرك بالله: جعل له شريكاً وندّاً ..

وفي التنزيل العزيز آيات؛ منها:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.[1] أي لا تعدل بالله شيئاً في العبادة..

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.[2]

تنبيه على أنه هو الذي خلقهم والذي رزقهم دون من جعلوه نِدّاً له من الأوثان، ثم زجرهم عن أن يجعلوا له ندّاً.. والندّ: الشبه، يقال: فلان ندّ فلان، ونديده: أي مثله وشبهه، قال ابن عباس: الأنداد: الأشباه. وكل

---

١. لقمان : ١٣.

٢. البقرة : ٢٢.

شيء كان نظيراً لشيء وشبيهاً فهو له ندٌّ حتى روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لمن قال له: ما شاء الله وشئتَ: «أجعلتني لله نداً؟!»؛ فكلا الآيتين تحملان نهياً وزجراً عن اتخاذ شركاء مع الله وأنداداً له بأي وجه من الوجوه، وهو بيان مع وجازته شاف واضح عن حقيقة الشرك في القرآن الكريم، لا لبس فيه ولا غموض... كما أنّ التنزيل العزيز في آيات عديدة بيّن عظمة وخطورة هذا الشرك، ومن هذه الآيات، الآية السابقة: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. أنّ جعله ذنباً عظيماً فهو تعليل للنهي عنه وتهويل لأمره، فإنه ظلم لحقوق الخالق، وظلم المرء لنفسه إذ يضع نفسه في حضيض العبودية لأخس الجمادات، وظلم لأهل الإيمان الحقّ إذ يبعث على اضطهادهم وأذاهم، وظلم لحقائق الأشياء بقلبها وإفساد تعلقها. وهذا من جملة كلام لقمان كما هو ظاهر السياق، ودل عليه الحديث في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾.[1] شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.[2]

١. الأنعام : ٨٢ .

٢. ابن عاشور، في التحرير والتنوير : الآية، ١٣ لقمان. وانظر الآية، ٤٨ النساء، والآية:٧٢ المائدة.

هذا، وقد عرف أهل مكة وغيرها بعبادة الأصنام والأوثان، وجاء قوله تعالى: مرّةً يسمي أوثانهم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾.[1]

و لا تخلو هاتان الآيتان، وكذا الآيات: ٢١ ـ ٢٢ ـ٢٣ من سورة النجم، من تقريع للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم البيوت لها مضاهاةً للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام.. فكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.. وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله، فقالوا: اللات، يعنون: مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.. وأنهم قرأوا: اللات، بتشديد التاء، وفسّروه بأنه كان رجلاً يلت للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات، عكفوا على قبره، فعبدوه.. وكذا العزى من العزيز، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، وكانت قريش يعظمونها؛ كما قال أبوسفيان يوم أحد: لنا العُزّىَ ولا عُزّىَ لكم! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»... حتى اعتاد بعض ألسنتهم ذكرها والحلف بها

---

١. النجم ١٩ ـ ٢٠.

وإن أسلموا، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله...».[١]

فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك؛ وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: حلفت باللات والعزى، فقال لي أصحابي: بئس ما قلت! قلت هجراً!. فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله فذكرت ذلك له، فقال: «قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وانفث عن شمالك ثلاثاً، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لاتعد».

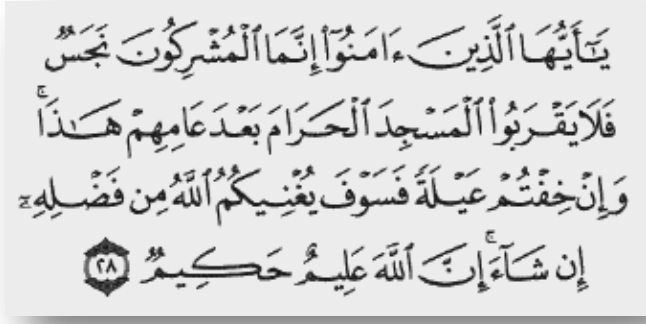
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ
فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ
إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

وأما مناة، فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة.

١. صحيح البخاري ٦ : ٥١.

وقد كان بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة، غير هذه الثلاثة التي نصّ عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر؛ لأنها أشهر من غيرها. قال ابن إسحاق في السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي لها كما يهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده، فكانت لقريش، ولبني كنانة العزى بنخلة، وكان سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم، حلفاء بني هاشم،.. جميع هذا قبل أن يأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بهدمها...[1]

وأخرى منكراً عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة، فيقول لهم:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾، أي من تلقاء أنفسكم، ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة؛ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾، أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم، الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظّ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾، أي ولقد

---

١. تفسيرالقرآن الكريم، ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ)؛ بتصرف وتلخيص.

أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير، والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به، ولا انقادوا له.

وثالثة يخاطب مشركي مكة مبيّناً عاقبة فعلتهم هذه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾.[1]

الخطاب لأهل مكة وإنما كانوا يعبدون الأصنام حتى روي أنه عليه السلام دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً...[2]

هذه أقوال عديدة، لم يكتفِ بعضها بالوثنيين، بل وسع دائرة الشرك لتشمل غيرهم، وقد أوجزناها بالتالي:

﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، هم عبدة الأصنام دون غيرهم من أصناف الكفار.

﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، هم جميع أصناف الكفار عبدة الأصنام وغيرهم من اليهود والنصارى.

﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، هم من ليس له عهد وهو مذهب الكوفيين، وهو أحد قولين يذكرهما النحاس في معانيه...[3]

---

١. الأنبياء : ٩٨.

٢. مجمع البيان، للطبرسي؛ وتفسير ابن كثير: الآية.

٣. تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن (ت ٧٢٥ هـ)؛ تفسير مفاتيح الغيب، الرازي (ت ٦٠٦ هـ)؛ معاني القرآن ٣ : ١٩٥.

وقفة مع أهل الكتاب: اليهود والنصارى

فلقولٍ صدر منهم، وهو ما تحدثت عنه الآية: ٣٠ التوبة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتْ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

و ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ...﴾.[1] ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.[2]

ولفعلٍ فعلوه، وهو ما تحدثت عنه الآية: ٣١ التوبة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ولما يشعر به قوله تعالى لعيسى بن مريم: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾.[3] فهم مشركون!

هذه الآيات ضمن أدلة استدل بها من يذهب إلى إدخال أهل الكتاب في دائرة الشرك والمشركين، وسيأتينا قول السيد البجنوردي ضمن فقرة اختلاف آخر.

---

١. المائدة : ٧٢.

٢. المائدة : ٧٣.

٣. المائدة : ١١٦.

فيما راح فريق ثانٍ يُناقش ذلك، وأنَّ مفردة المشركين مختصّة بعبدة الأوثان دون غيرهم من أهل الكتاب؛ للمغايرة الحاصلة من عطف مفردة المشركين على أهل الكتاب في الآية:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾.

البينة :١، وكذا الآيات: ٦ البينة، ١٠٥ البقرة، والآية ١٧ الحج.

وللتبادر من معنى الشرك وهو من اعتقد إلهاً مع الله، وقد ورد في أخبارنا أنّ معنى اتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله امتثالهم أوامرهم ونواهيهم لا اعتقادهم أنهم آلهة.

وكذا قال صاحب الجواهر رحمه الله في كلامه عن الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾،[1] «فيتوجه عليه منع دخول الكتابية في المشركة؛ لأن المتبادر من الشرك في إطلاق الشرع غير أهل الكتاب، كما يؤيده عطف المشركين على أهل الكتاب وبالعكس في كثير من الآيات...».

ثمَّ يقول: «وهذا لا ينافي اعتقادهم ما يوجب الشرك، إذ ليس الغرض نفي الشرك عنهم، بل عدم تبادره من إطلاق لفظ المشرك».[2]



---

١. البقرة : ٢٢١.

٢. جواهر الكلام ٣٠ : ٣٥.

كما احتمل **السيد الإمام الخميني** رضوان الله تعالى عليه، أنّ المراد من مفردة المشركين في الآية هم **مشركو العرب، أي الوثنيين**، جاء هذا ضمن كلام سماحته التالي: «... وكيف كان لا يمكن لنا إثبات الشرك لجميع طوائفهم، ولا إثباته لليهود مطلقاً. وليس في قول النصارى: "ثالث ثلاثة" إشعار بأنّ اليهود قائلون: إنه ثاني اثنين، ومجرد القول بأنّ عزيراً ابنُ الله لا يوجب الشرك وإن لزم منه الكفر، مع أنّ القائلين بذلك ـ على ما قيل ـ طائفة منهم قد انقرضوا».

وعن المجوس يقول السيد الإمام رحمه الله: «وأما المجوس فإن قالوا بإلهية النور والظلمة أو يزدان وأهرمن فهم مشركون داخلون في إطلاق الآية الكريمة، مع احتمال أن يكون المراد بالمشركين في الآية هو مشركو العرب أي الوثنيين، كما أنّ الطبيعيين من الكفار والمنتحلين إلى الإسلام خارجون عن الشرك، فالآية الشريفة غير وافية لإثبات تمام المدعى، أي نجاسة تمام صنوف الكفار...».[1]

**اختلاف آخر:** لقد وقع اختلاف آخر في المشركين، هل هم من سكنة مكة أو هم خارجها، أو منهما معاً؟ فقد ذهب الفقيه الشيخ الهمداني

---

١. جواهر الكلام، للشيخ محمد حسن الجواهري ٦ : ٤٢-٤٣؛ والقواعد الفقهية للسيد البجنوردي ٥ : ٣٣٣؛ و مدارك الأحكام، للسيد محمد الموسوي العاملي ٢ : ٤٤؛ وكتاب الطهارة ٣ : ٢٩٨، للسيد الإمام الخميني رحمه الله.

(ت.١٣٢٢هـ) إلى: «أنَّ المتبادر من الآية بشهادة سياقها مشركو أهل مكة التي أُنزلت البراءة من الله ورسوله منهم ومنعوا من قرب المسجد الحرام فلا يجوز التعدي عنهم إلا بتنقيح المناط، أو عدم القول بالفصل، ولا يتمُّ شيءٌ منهما بالنسبة إلى أهل الكتاب».[1]

لكن السيد البجنوردي ذهب إلى أنهم خارج مكة، ولم يكتفِ بعجبه في معرض ردّه على ما ذكره الهمداني:

والعجب من المحقق الفقيه الهمداني أنه قال في مصباح الفقيه: «إنّ المتبادر من الآية بشهادة سياقها مشركو أهل مكة التي أنزلت البراءة من الله ورسوله منهم ومنعوا من قرب المسجد الحرام». مع أنّ الآية في مشركي خارج مكة لقوله تعالى بعد هذه الجملة: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾، أي خفتم للفقر والنقص في معاشكم من ناحية عدم إتيانهم إلى الحج وإلى مكة، وعدم انتفاعكم بما يأتون به من الأجناس والأموال، التي كانت معهم للبيع والشراء معكم، وكان أهل مكة خافوا انقطاع المتاجر عنهم بمنع المشركين من دخول الحرم، فوعدهم الله تعالى بأنه جلَّ شأنه سوف يغنيهم من فضله، وهو تبارك وتعالى وفيٌّ بوعده، وكان يحمل الميرة إليهم من أنحاء العالم.

---

١. مصباح الفقيه ١ : ٥٥٨.

لم يكتف بهذا، بل وانطلاقاً من كون كلمة ﴿الْمُشْرِكُونَ﴾، جمعاً معرفاً باللام، وأنّ العبرة بعموم الكلام لا بخصوصية المورد،... استفاد السيد من ذلك عنواناً عاماً وسّع به الدائرة؛ ليشمل لا فقط مشركي خارج مكة، بل كلّ من ينطبق عليه العنوان المذكور؛ من كان منهم في مكة وفي سائر القبائل العربية، الذين يأتون إلى الحج ويدخلون المسجد الحرام للطواف حول الكعبة، وأولئك كلهم كانوا عبدة أصنام، وكلّ أصناف الكفار والمشركين بما فيهم الكتابيّون...

وجاء هذا في ردّه على الإشكال الرابع الذي ذكره والقائل: إنّ المراد بالمشركين هم المشركون في ذلك الوقت أي مكة وسائر القبائل العربية الذين يأتون إلى الحج ويدخلون المسجد الحرام للطواف حول الكعبة، وأولئك كلهم كانوا عبدة الأصنام، والكتابيون لا يحجون في ذلك الوقت وإلى الآن هم كذلك،... وفيه أنّ العبرة بعموم الكلام لا بخصوصية المورد، فإذا كان المشركون له العموم من جهة ظهور الجمع المعرف باللام في العموم لجميع الأفراد التي يصلح للانطباق عليها، فورودها في مورد قسم خاص من المشركين لا يضر بالاستدلال بعمومها.[1]

---

١. القواعد الفقهية ٥ : ٣٣٧.

و من العامة من ذهب إلى أنها خاصة في عبدة الأوثان كأبي حنيفة، كما صاحب تفسير البحر المديد الذي ذكر أنها نصٌّ على منع المشركين ـ وهم عبدة الأوثان ـ من المسجد الحرام، وهو مجمع عليه.

ولكن كيف هو مجمع عليه؟

وهو يذكر أنَّ مالكاً قاس على المشركين جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، وقاس على المسجد الحرام سائر المساجد، ومنع جميع الكفار من جميع المساجد.

فيما الشافعي ذهب إلى أنها عامة في الكفار.[1]

إذن فهناك من أدخل جميع الكفار للقياس وللعموم في مصطلح المشركين، وللأولوية أي بما أنّ المشركين نجس، وهم لا ينكرون الله سبحانه، وإنما: ﴿... ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَى...﴾.[2]

حين عمدوا إلى أصنامٍ راحوا يعبدونها؛ اعتقاداً منهم أنها تقربهم إليه تعالى، وتشفع لهم عنده في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعاد، فكانوا جاحدين له، كافرين بمنازل الآخرة ..، فبطريق أولى يحكم بنجاسة من ينكر الله سبحانه.

---

١. تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (ت٥٤٦ هـ)؛ تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة (ت١٢٢٤هـ).

٢. الزمر : ٣.

ولكن هل جميع مراتب الشرك ـ وللشرك مراتب متعددة لا يخلو منها غير المعصومين وقليل من المؤمنين...ـــ داخلة في هذا الإطلاق؟ وأيضاً يشملها: ﴿فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾، فيمنع المرائي. فصدق المشرك على المرائي أوضح من صدقه على اليهود بواسطة قولهم عزير ابن الله، وقد أُطلق عليه المشرك في جملة من الأخبار، مع أنه لا يعمّه الإطلاق قطعاً...[1]

ولازم ذلك نجاستهم، على مبنى من يرى النجاسة! أللهم إلاّ أن يُقال: إنَّ الشرك المراد هو شرك العقيدة، وهو الذي يؤدي إلى الكفر، لا شرك العمل كما يفعله المرائي، وبالتالي مثل هذا النوع من الشرك لا ينتهي إلى الكفر، ولا يكونون داخلين في عموم المشركين...

ثمَّ إنّ السيد الخوئي رحمه الله يذكر أنه: «لا مناص من أن يُراد بالمشرك مرتبة خاصة منه وهي ما يقابل أهل الكتاب... وأنّ ظاهر الآيات الواردة في بيان أحكام الكفر والشرك ـ ومنها هذه الآية ـ أنّ لكلّ من المشرك وأهل الكتاب أحكاماً تخصّه، مثلاً لا يجوز للمشرك السكنى في بلاد المسلمين ويجب عليه الخروج منها، وأما أهل الكتاب فلا بأس أن يسكنوا في بلادهم مع الالتزام بأحكام الجزية والتبعية للمسلمين، فحكمهم حكم المسلمين وغير ذلك مما يفترق فيه المشرك عن أهل الكتاب، ومنه تبريّه

---

١. التنقيح، للسيد الخوئي، كتاب الطهارة ٢ : ٤٣-٤٤؛ مصباح الفقيه، للشيخ الهمداني :٥٥٧ – ٥٥٨.

سبحانه من المشركين دون أهل الكتاب، ومعه كيف يمكن أن يقال: إنَّ المراد من المشركين في الآية أعم من أهل الكتاب؟ فإنّ ظاهرها أنّ المشرك في مقابل أهل الكتاب». [1]

وتتمّة كلامه تأتينا.

كذلك وبقراءة دقيقة للآيات التي تتحدث عن المشركين والبراءة منهم وعما يتعلق بهم من عهود وغيرها، التي وردت سبع مرات في العديد من آيات هذا المقطع: ١ـ ٢٨ من سورة التوبة، وانتقال الكلام في الآية: ٢٩وبعدها للحديث عن أهل الكتاب، تصلح أن تكون أيضاً قرائن على أنَّ الذين قصدوا بالمنع أو القرب من المسجد الحرام هم الوثنيون، أو هم القدر المتيقن، سواء أكانوا من أهل مكة أو غيرهم ممن هم خارجها، فهؤلاء هم المعنيون ببراءة، وقد قرئت وتمَّ تبليغهم بنصوصها الأربعة من قبل الإمام عليٍّ عليه السلام في مواقع الحجّ، وهي أماكن تواجد الوثنيين دون الكتابيين، فهم لا يقدسون الكعبة ولا يدخلون المسجد الحرام أصلاً، أو يتنسكون به وبمواقع الحج والعمرة... فقد "جعل الشرك ملاكاً لمنع المشركين من الاقتراب إلى المسجد الحرام، فإنّ وضوح أن من يقصد بهذا المنع ـ عملياً ـ هم المشركون الوثنيون، دون الكتابيين الذين لا يقدسون الكعبة أصلاً، وليسوا في معرض الوصول إليها، قد يشكل قرينة على

١. المصدر نفسه.

ذلك، وكذلك ما تصدى له النصّ القرآني عقيب ذلك من تطمين أهل مكة بقوله:

﴿**وإن خفتم عيلة...**﴾ فإنّ العيلة إنما تخاف بسبب تحريم مجيء المشركين الوثنيين الذين اعتادوا المجيء. ويكفي على أي حال افتراض تكافئ المعنيين في إجمال الآية الكريمة...".[1]

وحتى لو وجدوا في مكة فلا يشكل وجودهم ظاهرةً كبيرة، فهم لم يكونوا من سكنة الحرم دواماً والماكثين فيه طويلاً، وإن دخلوا الحرم فإنّ دخولهم عابر أو موقت، فقد "سكن اليهود مواضع شتّى من الجزيرة العربيّة منها يثرب وخيبر ووادي القرى وفي اليمن واليمامة والعروض، وكان تجار منهم يقيمون في مكّة وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب قصد الاتّجار وإقراض المال..".

ومصادر التاريخ تحدثنا أنَّ المسيحيّة أيضاً ومن خلال الحركة التبشيرية التي تميزت بها ـ وما زالت حركتها تتصف بالنشاط والسعة حتى يومنا هذا ـ قد أثّرت في الجزيرة العربيّة، ولكن دون الحجاز الذي حافظ على خصوصيته الوثنيّة، أو بالأحرى باستثناء مكّة والقبائل الدائرة في فلكها كغطفان وهوازن وعامر بن صعصعة وثقيف. وهذا لا يعني أنها لم تجد لها موطن قدم في مكّة خاصّة بني أسد بن عبد العزّى، ومنهم

---

١. السيد الشهيد الصدر رحمه الله في شرح العروة الوثقى ٣ : ٢٦٢.

عثمان بن الحويرث وورقة بن نوفل.. وعبر وجود العديد من الموالي والعبيد المسيحيين عند بعض أثرياء قريش كعداس خادم عتبة وشيبة ابني ربيعة، والجواري لدى بني مخزوم وغيرهم إضافةً إلى بعض الأحباش، ولا نغفل عما كان لتجّار قريش من علاقات وطيدة بالمسيحيين من أهل الشّام والعراق.. وعما كان للمسيحيّة من ثقل كبير، وهي تحاصر الجزيرة العربيّة والحجاز خاصّة.[1]

كما أنهم ليسوا معنيين بالمسجد عبادةً أو عمارةً أو سقايةً.. والآية ٢٨ من سورة التوبة هي من آيات هدفها منع المشركين من هذه المآثر، وما يترتب عليها من نتائج كالسلطة والمنّة على المسلمين.

نعم؛ إنّ الحجّ يعدُّ موسماً تجاريّاً ينتفعون منه كما ينتفع منه الجميع، فهم أهل تجارة وعمل بلا شك، وغيابهم أو تغييبهم عنه يترك ضرراً ويسبب عيلةً وحرجاً لأهل مكة، الذين قد تربطهم بهم مصالح وعلاقات تجارية.. ولكنَّ الأمر المهم أنّ تواجدهم لا يشكل ظاهرةً خطيرةً، ولا يسبب منعهم عن الحرم أو تغييبهم عن حضور مواسم الحج والعمرة من أجل التجارة تقليلاً لتآمرهم ومنعاً لكيدهم، فهم يستطيعون الكيد للمسلمين ولو من بعيد، وبالتالي ليسوا موضوعاً للمنع المذكور، إنما الذي هو موضوع للمنع والنهي في هذه الآية وتنيّو العرب، الذين يؤدون مناسك

١. تاريخ اليعقوبي ١ : ٢٥٧؛ السيرة النبوية، لابن هشام١: ؛ المفصل في تاريخ العرب، لجواد علي ٦ : ٥١١، بتلخيص.

الحج والعمرة، ويتطلب هذا دخولهم المسجد والحرم، ولهم فيه مكاسب معنوية ومناقب يتفاخرون بها، ويمنون بها على الآخرين وبالذات على المسلمين، ويريدون أن يتحكموا بمصير المسلمين، من خلال زعاماتهم لبيت الله الحرام ولشؤونه ولما حوله؛ ولهذا قالت الآية: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾، أي فامنعوهم عن المسجد الحرام ومن دخول الحرم، والعام الذي أشارت إليه الآية هو سنة تسع الذي نادى فيه الإمامُ عليٌّ عليه السلام ببراءة، كما ذكرنا.

**النجس لغةً وإعراباً:**

لها معان وموارد استعمال عديدة حتى فيما لا مفهوم للنجاسة الظاهرية فيه، وتبع ذلك قراءات مختلفة، فالنجس ضدّ الطاهر، والنجاسة هي عكس الطهارة كما هو متعارف بيننا. وبهذا المعنى استعملت في الجاهلية أيضاً. وهناك كلمة أُخرى لها معنى قريب من معناها، وهي لفظة رجس بمعنى قذر، وعن الموارد الأخرى لاستعمال النجاسة، نذكر هذا لمزيد فائدة، ولنكتشف من خلال ذكرنا لهذه الموارد أنّ كلمة ﴿نَجَسٌ﴾ قد ترددت في أكثر من معنى، ولها استعمالات كثيرة تتجاوز معنى النجاسة المتعارفة، وهو ما قد ينفع في حكم النجاسة، وفي نوعها إن كانت عرضية أو عينية أو معنوية أو غيرها... وقد تدخل كما يبدو في دائرة الإجمال.

"ومن هنا يتضح أنه مع ملاحظة ما جاء في الآية ـ محل البحث ـ ... لا يمكن الاستدلال بهذه الآية على نجاسة الكفار، بل ينبغي البحث عن أدلة أخرى...". هذا ما انتهى إليه الشيخ مكارم الشيرازي، وسيأتينا كلامه مفصلاً.

فمفردة «النَجَس» مصدر، تأتي للتأكيد والمبالغة والوصف..، وفيها خَمْس لُغَاتٍ: فَتْح النُّون وكَسْرهَا، مع سُكُونِ الجيم والحَركَات الثَّلاث في الجِيم، مع فَتْح النُّون. وتَوْضِيحُه ما في العُبَاب وعبارته: النَّجَسُ بفتحتين والنَّجِسُ بفتحٍ فكسر، والنَّجُسُ بفتحٍ فضَمٍّ، والنَّجْسُ بفتحٍ فسُكون، والنِّجْسُ بكسرٍ فسُكُون: ضِدُّ الطاهِر، وقد نَجُسَ ثَوْبُه، كسَمِعَ وكَرُمَ نَجْساً ونَجَاسَةً.

ومما جاء في معاجم اللغة أيضاً: النَّجْسُ والنِّجْسُ والنَّجَسُ: القَذِرُ من الناس ومن كلَ شيء قَذِرْتَه. ونَجِسَ الشيءَ، بالكسر، يَنْجَسُ نَجَساً، فهو نَجِسٌ ونَجَسٌ، ورجل نَجِسٌ ونَجَسٌ، والجمع أَنْجاسٌ، وقيل: النَّجَسُ مصدر يكون للواحد والاثنين والجمع والمؤنث بلفظ واحد، رجل نَجَسٌ ورجلان نَجَسٌ ورجال نَجَسٌ وقوم نَجَسٌ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، وامرأة نَجَسٌ، وامرأتان نَجَسٌ، ونساء نَجَسٌ. فإذا كَسَرُوا ثَنَّوْا وجَمَعوا وأَنَّثوا، فقالوا أَنْجاسٌ ونِجْسَةٌ، وقال الفرّاء: نَجَسٌ لا يجمع ولا يؤنث. وقال أبو الهيثم في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ أي أنْجاسٌ أخباث. وفي الحديث: أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان إذا دخل الخلاء قال:

«أللهم إني أعوذ بك من النَّجس الرِّجْس الخَبيثِ المُخْبث... والنَّجِسُ: الدَّنِس.

وقد جاء أنّ الرجل إذا زنى بامرأة ثمَّ تزوّجها قالوا له: هو أنجسها وهو أحقُّ بها. وإذا وصفوا به الداءَ أو صاحبه أريد به أنه عُقَامٌ عضالٌ لا يبرأ، والناجس والنجيس داء خبيث لا دواء له.. وقال الزمخشري: أعْيَا المُنَجِّسين، حتى قال شاعرهم:

**وداءٍ قَد أعْيَا بالأَطباءِ ناجِسُ**

وقال ساعِدَةُ بنُ جُؤَيَّةَ:

**والشَّيْبُ دَاءٌ نَجِيسٌ لا شِفَاءَ لَهُ  لِلْمَرْءِ كَانَ صَحِيحاً صائِبَ القُحَم**

أي هو داء عياء للرجل الصحيح الجلد الذي إذا تقحم في الشدائد أصاب فيها ولم يخطيء. وكذلك العبرانيون يسمون الداء العضال نجساً وصاحبه نجساً وشفاءه طهارة.

والنجس والتنجيس شيء كانت العرب تفعله كالعوذة للصبي تدفع بها العين وقد نجس له ونجسه عوّذه، ويقال للمعوذ منجّس، والمنجس ما يعلق عليه عظام أو خرق. وكان أهل الجاهلية يعلقون من خرق المحيض على الصبي ومن يخاف عليه العيون والجنَّ الأقذارَ أو ليدفعوا عنه نجاسة الشيطان؛ لأنّ الجنَّ تنفر منها ولا تقربها. وأنشد العَجّاج:

**ولَمْ يَهَبْنَ حُمْسَةً لأَحْمَسَا  ولاَ أخَا عَقدٍ ولا مُنَجِّساً**

ومن السجع قولهم:

إذا جاءَ القَدَرُ لَم يُغْنِ المُنَجِّمُ، ولا المُنَجِّسُ، ولا الفَيْلَسُوفُ، ولا المُهَنْدِس؛

ومنه قَولُ الشاعر:

وعَلَّقَ أنْجاساً عَلَيَّ المُنَجِّسُ ولو كانَ عِنْدِي كاهِنَانِ وحَارِسُ

وجارِيَةٍ مَلْبونَةٍ ومُنَجِّسٍ وطارِقَةٍ في طَرْقِها لم تُسَدَّد

يصف أهل الجاهلية أنهم كانوا بين متكَهِّنٍ وحَدَّاس وراقٍ ومنَجِّس ومتَنَجِّم حتى جاء النبيُّ ﷺ كما أنّ الجاهلين منهم بالإسلام لا يزالون يعلقون التناجيس والتعاويذ على الأولاد، لوقايتهم من الجن والعين الخبيثة من الإنس.

ومن المَعَاذَاتِ: التَّميمَةُ والجُلْبَةُ والمُنَجّسَة.

ويقال لمن فَعَلَ فِعْلاً يَخْرُجُ به عِنِ النَّجَاسَةِ: تَنَجَّسَ، كما قيل: تَأَثَّمَ وتَحَرَّجَ وتَحَنَّثَ إذا فَعَل فِعْلاً يَخْرُجُ به عن الإثْمِ والحَرَجِ والحِنْثِ. لأَنَّ للعَرَبِ أفْعَالاً تُخَالِفُ مَعانيهَا أَلْفَاظَهَا؛ يُقَال: فُلانٌ يَتَنَجَّسُ إذا فَعل فِعْلاً يَخْرُج به مِن النَّجَاسَة. وكذا يقال للمُعوَّذِ: مُنَجَّسٌ وهو مأخُوذٌ من النَّجَاسَة..

ومحمد رشيد رضا يذكر تحقيقاً مفصلاً نافعاً عن مفردة «نَجَسٌ» وموارد استعمالها، نبيّن شيئاً منه، فبعد أن يذكر أنّ "سلائل العرب لاتزال في البدو والحضر يقولون: فلان نجس، بمعنى خبيث ضار مؤذ، كما أنّ الجاهلين منهم بالإسلام لا يزالون يعلقون التناجيس

والتعاويذ على الأولاد؛ لوقايتهم من الجنّ والعين الخبيثة من الإنس، وكذلك العبرانيون يسمون الداء العضال نجساً وصاحبه نجساً وشفاءه طهارة... يخلص إلى أنّ جملة القول ـ كما يذكر ـ : إنّ لفظ النجس في القرآن جاء بالمعنى اللغوي المعروف عند العرب لا بالمعنى العرفي عند الفقهاء، وكانت العرب تصف بعض الناس بالنجس وتريد به الخبث المعنوي كالشّر والأذى، وإلا لما وصفوا به بعض الناس دون بعض، كما في قول الأساس: الناس أجناس، وأكثرهم أنجاس. ولا يطلقون النجس بمعنى القذر الذي يطلب غسله حتى إذا زال سمي طاهراً إلا فيما يدرك قذره وخبثه بالحس كالرائحة القبيحة.. فكلُّ ما ينفر منه الإنسان يقال عنه: إنّه نجس، وكلّ من يحمل هذه الصفات يمكن وصفه بأنه نجسٌ، وهذا إن صحَّ فقد يكون نافعاً في تفسير الآية، فسيرة مشركي مكة لا تخلو من هذه الصفات، وبالذات في علاقتهم بالمسلمين يومذاك ـ والله تعالى العالم بمراده ـ .

**والنجس في معجم لغة الفقهاء:**

بفتح الجيم وكسرها اسم فاعل من نُجِس «بضم الجيم وكسرها» جمع أنجاس: المستقذر، ما اتصف بالنجاسة من الأشياء «ر:نجاسة»، وهو على نوعين:

نجس العين: وهو ما لا يقبل التطهير كالبول والغائط والدم والميتة والخنزير.

المتنجس: وهو ما كان غير نجس في أصله ولكنه اكتسب النجاسة من غيره، ويقبل التطهير، كالماء المتنجس، والثوب المتنجس...

**وأما إعراباً فقد جاء في ذلك:**

إنما: كافة ومكفوفة. وهي أداة حصر، وبما أنها كذلك فهذا يقتضي أن لا نجس إلاّ المشرك، وهو ما ذهب إليه الرازي وغيره، كما يأتينا. والمشركون: مبتدأ. ونجس: خبر. وهو مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والمثنى والجمع. ولهذا لم يقل: نجسون، والجملة ابتدائية. وقد جوّز الجوهري وكذا ابن عاشور أن يكون ﴿نَجَسٌ﴾ صفة مشبهة، ولابد حينئذٍ من تقدير موصوف مفرد لفظاً، مجموع معنًى، ليصحَّ الإخبار به عن الجمع، أي جنس نجس ونحوه.

هذه خلاصة لما جاء في تاج العروس، ولسان العرب، ومفردات الراغب، وتفسير المنار، وروح المعاني للآلوسي، والتحريروالتنوير، ومجمع البيان. وإعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين الدرويش:٨٥-٨٦ ، الآية.

القراءة:

وقرأ ابن السميقع ﴿أَنْجَاسٌ﴾ على صيغة الجمع. وفي المجمع هي من الشواذ. وقرأ أبوحيوة ﴿نِجْسٌ﴾، بكسر النون وسكون الجيم، وهو تخفيف نجس، ككبد في كبد، ويقدر حينئذٍ موصوف.[1]

وعن المبالغة: وقد حصلت المبالغة في الإخبار عنهم أنهم ﴿نَجَسٌ﴾، بأمرين، وهما:

إنما

المصدر

يقول الطريحي: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ حصر أوصاف المشركين في النجس، والنجس مصدر في الأصل، تقول: نجس بكسر العين وينجس بفتحها نجساً بفتحتين فهو نجس بفتح العين وكسرها، وإذا استعمل مع الرجس كسر أوله، يقال: رجس نجس بكسر أولهما وسكون الجيم..

ثمَّ قال أيضاً: وقال بعض المحققين: وقوع المصدر خبراً عن ذي جثة، يمكن أن يكون بتقدير مضاف، والمراد ذو نجس، أو بتأويل المشتق، أو هو باق على المصدرية من غير إضمار ولا تأويل طلباً للمبالغة، فكأنهم تجسموا بالنجاسة، فالكلام مجاز عقلي.

---

١. روح المعاني، للآلوسي؛ مجمع البيان، للطبرسي : الآية.

وهذا الوجه أولى من الوجهين الأولين، كما صرح به محققو علماء المعاني في قول الخنساء: فإنما هي إقبال وإدبار.

وفي الحديث: «ألقوا الشعر عنكم فإنه نجس»، أي قذر..

ويقول الآلوسي: أخبر عنهم بالمصدر للمبالغة كأنهم عين النجاسة.

كما أنّ الراوندي يقول: وفي الآية شيئان تدل على المبالغة في نجاستهم:

**أحدهما:** قوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ**﴾، فهو أبلغ في الإخبار بنجاستهم من أن يقال: «**المشركون نجس**» من غير إنما، فإنّ قول القائل: «**إنما زيد خارج**» عند النحويين بمنزلة «**ما خارج إلا زيد**».

ابن عاشور: وصيغة الحصر في قوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ**﴾، لإفادة نفي التردّد في اعتبارهم نجساً، فهو للمبالغة في اتّصافهم بالنجاسة حتّى كأنّهم لا وصف لهم إلاّ النجسية.

**والثاني:** قوله ( **نجس** ) وهو مصدر، ولذلك لم يجمع، والتقدير إنما المشركون ذو نجاسة. وجعلهم نجساً مبالغة في وصفهم بذلك، كما يقال: (**ما هو الأسير**) إذا وصف بكثرة السير: فإنما هي إقبال وإدبار

وفرق بين مفردة نَجَسٌ ونَجِسٌ، فالأولى مصدر فهي عين النجاسة، فيما الثانية صفة تصيب شيئاً يمكن تطهيره... والإخبار عن الذات بالمصادر أمر شائع للمبالغة. ولا ريب أيضاً في صحة الإخبار بالتقدير أي ذو نجس، ولايختصُّ التقدير بالنجاسة العرضية، بل يصحُّ في الذاتيات

أيضاً كما يقال: الإنسان ذو نطق. هذا ويصحُّ حمل المصدر دون تقدير مضاف على المبالغة نحو زيد عدل..

وعن إنما يقول الرازي: "إنما" للحصر، وهذا يقتضي أن لا نجس إلا المشرك.

السيد الشهيد الصدر رحمه الله:

«وهو أنّ الآية الكريمة سيقت مساق حصر حقيقة المشركين بأنهم نجس بلحاظ أداة الحصر، فكأنه لاحقيقة لهم سوى ذلك، وهذا إنما يناسب النجاسة الحقيقية المعنوية لا النجاسة الاعتبارية».

والآلوسي:

أخبر عنهم بالمصدر للمبالغة كأنهم عين النجاسة، أو المراد ذوو نجس لخبث بواطنهم وفساد عقائدهم، أو لأنّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهي ملابسة لهم، وجوز أن يكون ﴿نَجَسٌ﴾ صفة مشبهة وإليه ذهب الجوهري، ولابدّ حينئذ من تقدير موصوف مفرد لفظاً مجموع معنًى ليصح الإخبار به عن الجمع، أي جنس نجس ونحوه. ثمَّ يقول: "وتخريج الآية على أحد الأوجه المذكورة هو الذي يقتضيه كلام أكثر الفقهاء حيث ذهبوا

إلى أنّ أعيان المشركين طاهرة، ولا فرق بين عبدة الأصنام وغيرهم من أصناف الكفار في ذلك".[١]

سبب نجاستهم:

ففي سبب كونهم ﴿نَجَسٌ﴾، تعدّدت الأقوال:

فهم نَجَسٌ:

لأنّ معهم الشرك، الذي هو بمنزلة النجس.

لأنهم لا يتطهرون من حدث، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يجتنبون النجاسات، فلا تنفك تلابسهم. ولو اغتسل عن الجنابة، فغسله هذا ليس بغسل، وبالتالي فهو جُنُب..

لأنهم جعلوا كأنهم النجاسة بعينها مبالغةً في وصفهم بها.

وصفوا بالنجس، مجازاً عن خبث الباطن وفساد العقيدة. أو المراد ذوو نجس؛ لخبث بواطنهم وفساد عقائدهم.

لأنّ علينا اجتنابهم كما تجتنب الأنجاسُ، صاروا بحكم الاجتناب كالأنجاس.



---

١. الطريحي، في مجمع البحرين ١ : ٦٤؛ والآلوسي، في روح المعاني: الآية؛ والراوندي، في فقه القرآن ١: ٦٤؛ ومهذب الأحكام، للسبزواري ١ : ٣٥٥؛ تفسير الرازي: الآية؛ الطهارة، العروة الوثقى، للشهيد الصدر: ٢٦٣. وانظر أيضاً تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة (ت ١٢٢٤ هـ).

.. ما المشركون إلاّ رجس خنزير أو كلب. وبعد أن يذكره الطبري في تفسيره يقول عنه: وهذا قول رُوي عن ابن عباس من وجه غير حميد، فكرهنا ذكره.[١]

**أي نوع من النجاسة؟**

وقع الاختلاف أيضاً بينهم في النوع المراد من النجاسة المذكورة في الآية، يتضح هذا من خلال ما ذكروه من أنواع:

فمما جاء حول مفردة ﴿نَجَسٌ﴾، في تاج العروس من جواهر القاموس: ... قال الرّاغبُ في المُفْرَدات وتَبعَه المصنِّفُ في البصائر: النَّجاسَةُ ضَرْبَان:

ضَرْبٌ يُدْرَكُ الحَاسَّةِ. وضَرْبٌ يُدْرَك بالبَصِيرَةِ. وعلى الثّاني، وَصَفَ اللهُ به المُشْرِكِينَ فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ فالنجاسة والنجس يطلقان على كلِّ قذارة: قذارة حسيّة، وقذارة باطنية.

وعن هذا جاء في تفسير المنار: وظاهر كلام الراغب وغيره أنّ إطلاق النجس على القذر والخبث الحسي والمعنوي حقيقة فيهما وهوالذي أفهمه، ومنه المعاصي والداء العضال... قال: ومن المجاز الناس

---

١. تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، للطبري (ت٣١٠ هـ)؛ تفسير الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (ت٦٧١ هـ)؛ تفسير الكشاف، للزمخشري (ت٥٣٨ هـ)؛ وروح المعاني، للآلوسي؛ وتفسير الصافي في تفسير كلام الله الوافي، الفيض الكاشاني (ت١٠٩٠هـ).

أجناس، وأكثرهم أنجاس، ونجسته الذنوب ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ وتقول: لا نرى أنجس من الكافر، ولا أنجس من الفاجر.[١]

وأيضاً اختلفت أقوالهم مفسرين كانوا أم فقهاء، نُوجز ما ذكروه، ولمن يستزيد فعليه بمصادر ذلك.. فقد وقع كلام بينهم في أنّ النجاسة التي وصف بها المشركون بين كونها: نجاسة مادية؛ كالتي تعلق بالأجسام والملابس وبغيرها، وتطهر بالطريقة المتعارفة.

**نجاسة معنوية:** فقد ذهب إليها السعدي (ت١٣٧٦هـ) وهو من علماء الحنابلة: ﴿نَجَسٌ﴾، أي خبثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي نجاسة أبلغ، ممن كان يعبد مع الله آلهة... فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم... وليس المراد هنا، نجاسة البدن، فإنّ الكافر ـ كغيره ـ طاهر البدن، بدليل أنّ الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها، والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها تَقَذُّرَهُم من النجاسات، وإنما المراد نجاستهم المعنوية بالشرك، فكما أنّ التوحيد والإيمان، طهارة، فالشرك نجاسة.[٢]

---

١. تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي ١٦: ٥٣٤؛ وتفسير المنار: الآية.

٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي: الآية.

وسيد قطب حيث يقول: "﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ يجسم التعبير نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم. فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس، يستقذره الحس، ويتطهر منه المتطهرون! وهو النجس المعنوي لا الحسي في الحقيقة، فأجسامهم ليست نجسة بذاتها. إنما هي طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم".

و ابن عاشور: و ﴿نَجَسٌ﴾؛ صفة مشبهة، اسم للشيء الذي النجاسة صفة ملازمة له، وقد أنيط وصف النجاسة بهم بصفة الإشراك، فعلمنا أنّها نجاسة معنوية نفسانية وليست نجاسة ذاتية. ثمَّ يقول: والنجاسة المعنوية هي اعتبار صاحب وصف من الأوصاف محقّراً متجنَّباً من الناس، فلا يكون أهلاً لفضل مادام متلبّساً بالصفة التي جعلته كذلك، فالمشرك نجَس لأجل عقيدة إشراكه، وقد يكون جسده نظيفاً مطيّباً لايستقذر، وقد يكون مع ذلك مستقذرَ الجسد ملطخاً بالنجاسات؛ لأنّ دينه لا يطلب منه التطهّر، ولكن تنظّفهم يختلف باختلاف عوائدهم وبيئتهم. والمقصود من هذا الوصف لهم في الإسلام تحقيرهم وتبعيدهم عن مجامع الخير، ولا شكّ أنّ خباثة الاعتقاد أدنى بصاحبها إلى التحقير من قذارة الذات، ولذلك أوجب الغسل على المشرك إذا أسلم انخلاعاً عن تلك القذارة المعنوية بالطهارة الحسّيّة لإزالة خباثة نفسه، وإنّ طهارة الحدث لقريب من هذا.

وجاء في فقه السنة عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ فالمراد به نجاستهم المعنوية من جهة اعتقادهم الباطل، وعدم تحرّزهم من الأقذار

والنجاسات، لا أنّ أعيانهم وأبدانهم نجسة، وقد كانوا يخالطون المسلمين، وترد رسلهم ووفودهم على النبيّ صلى الله عليه وآله ويدخلون مسجده، ولم يأمر بغسل شيء ممّا أصابته أبدانهم.[١]

وفي معرض الردّ على من استدل بالآية: ٢٨ التوبة، على النجاسة العينية، ذُكر في نيل الأوطار: "وأجاب عن ذلك الجمهور... بأنّ المراد أنهم نجس في الاعتقاد والاستقذار، وحجتهم على صحة هذا التأويل أنّ الله أباح نساء أهل الكتاب، ومعلوم أنّ عرقهن لا يسلم منه من يضاجعهن، ومع ذلك فلا يجب من غسل الكتابية إلا مثل ما يجب عليهم من غسل المسلمة..."[٢].

والشيخ الهمداني: ".. فلا مانع من أن يكون المراد بالنجس في الآية الخباثة الباطنية والقذارة المعنوية الحاصلة بالشرك الذي هو أشد قذارة من الأحداث المانعة من دخول المساجد"[٣].

والسيد فضل الله: «وما يؤيد إرادة القذارة المعنوية من كلمة «نجس» وإرادة مكة من «المسجد الحرام»، أنه لو كانت النجاسة المادية هي المدلول للكلمة، لما كان هناك أية مناسبة لقول: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ الذي يوحي بأنه لا مانع من دخولهم المسجد بنجاستهم قبل نهاية العام،

١. فقه السنة، للسيد سابق ١ : ٢٠.
٢. نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار؛ لمحمد الشوكاني ١ : ٢٥.
٣. مصباح الفقيه : ٥٥٧ ـ ٥٥٨. العاشر: الكافر بجميع أصنافه.

لأنّ حكم النجاسة المادية في إبعاد المسجد عنها أمر فوري، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ الفقرة التالية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ توحي بأنّ المسألة تتصل بخروج المشركين من مكة ومنعهم من العودة إليها للحج أو لغيره، الأمر الذي يتصل بالجانب الاقتصادي السلبي الذي يتصوره المسلمون مما لا دخل للنجاسة فيه من قريب أو من بعيد وعلى ضوء هذا، فلا يكون لهذه الآية أي ظهور في نجاسة المشركين ليتعدى الكافر الملحد بالأولوية القطعية...».

كما ذهب إلى أنها: «توحي بالحاجز النفسي الذي يفصل المسلمين عنهم، فيما تمثله قذارة الفكر الشركي والممارسة العبادية للأصنام، ما يبعدهم عن الأجواء الروحية العبادية التي تعيشها أماكن العبادة التي أعدها الله للعاكفين والركع السجود الذين يعيشون وحدة الله في العقيدة وفي العبادة، من خلال وجود المشركين هناك. فهذا المعنى عنده لعلَّه أقرب إلى جوّ الآية من خلال الفقرة التالية: ﴿فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا﴾، فإنّ مضمونها لا يتناسب مع النجاسة المادية، ولذا لا يلتزم الفقهاء بحرمة إدخال النجاسات إلى المسجد الحرام إذا لم يستلزم هتكاً، كالدم أو البول الموضوع في قارورة، أو جلد الميتة أو لحمها ونحو ذلك. فالآية لا توحي إلا بالتنافر الروحي والمعنوي بين ما يمثله المشركون من عبادة الأصنام، وما يمثله المسجد الحرام من عبادة الله الواحد. ولهذا ناقش

في دلالتها على النجاسة الفقهاءُ الذين يرون نجاسة المشرك، ولكن من خلال دليل آخر».[١]

**نجاسة عينيّة:** فكما رأينا أنَّ لهذه المفردة التي وردت مرةً واحدةً في التنزيل العزيز العديدَ من المعاني لغةً، ولها استعمالات مختلفة، ولها عند المفسرين والفقهاء قراآت واستفادات هي الأخرى مختلفة، إلاّ أنَّ هذه القراءة «النجاسة العينية» خاصةً عند مشهور الإمامية كما يذكرون؛ تُعدُّ قراءةً تعبديةً محضةً لمسألة النجاسة، وبالذات لمفردتها ﴿نَجَسٌ﴾؛ الواردة في الآية، ملتزمةً بالإطلاق والعموم... دون النظر والاعتناء بالظروف والأفراد والأحوال والمقاصد وحتى بتعدد ما تحمله مفردة ﴿نَجَسٌ﴾، من معاني لغوية واستعمالات عديدة، وبما تتركه من آثار اجتماعية، مما يجعل هذه القراءة الفقهيّة تذهب إلى اختيار نجاستهم العينية، وتعميمها لكلّ من ينطبق عليه وصف الشرك والكفر، جاعلةً من الآية المذكورة دليلاً بجانب أدلة أخرى، راحت تستفيد منها نجاسة هؤلاء جميعاً، وحتى من لم يرَ أنّ الآية تصلح أن تكون دليلاً على نجاستهم، راح يستفيدها من رواية وإجماع، وفيهما كلام مفصل بينهم، وهناك من ذهب منهم إلى استثناء الكتابي من جميع هذه الأدلة، وقالوا بطهارته، فيما قليل من فقهاء الإمامية ذهب إلى طهارة الجميع، أي طهارة الإنسان مطلقاً.



---

١ من وحي القرآن: الآية.

فالشيخ السيوري (ت٨٢٦ ) وهو يتحدث عن أحكام الآية: ٢٨ التوبة، في كتابه (فقه القرآن) يقول: إنّ المشركين أنجاس نجاسة عينية لا حكمية، ثمَّ يصرّح: وهو مذهب أصحابنا، وبه قال ابن عباس: إنّ أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير...

والشيخ الطبرسي في مجمع البيان وهو يذكر الاختلاف في نجاسة الكافر، فقال قوم من الفقهاء: إنَّ الكافر نجس العين، وظاهر الآية يدل على ذلك، و روي عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، واتبع نهيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، الآية. وعن الحسن قال: لا تصافحوا المشركين فمن صافحهم فليتوضأ، وهذا يوافق ما ذهب إليه أصحابنا من أنَّ من صافح الكافر ويده رطبة وجب أن يغسل يده وإن كانت أيديهما يابستين مسحهما بالحائط.

ثمَّ يذكر القسمين الآخرين: وقال آخرون: إنما سمّاهم الله نجساً؛ لخبث اعتقادهم وأفعالهم وأقوالهم، وأجازوا للذمي دخول المساجد. قالوا: إنما يمنعون من دخول مكة للحج. قال قتادة: سماهم نجساً؛ لأَنهم يجنبون ولا يغتسلون ويحدثون ولا يتوضؤون، فمنعوا من دخول المسجد؛ لأَنّ الجنب لا يجوز له دخول المسجد.

السيد البجنوردي: «فالله تعالى منع المشركين عن دخول المسجد الحرام؛ لأنهم نجس. والمشركون جمع معرف بالألف واللام، فهو عنوان عام

يشمل كلّ من ينطبق عليه، وبالتالي تشمل سائر فرق الكفار والكتـابيين، وورودها في مورد قسم خاص من المشركين لا يضرّ بالاستدلال بعمومها؛ لأنّ العبرة بعموم الكلام لا بخصوصية المورد.. ويخلص السيد بعـد ذكـره للإشكالات الأربعة؛ إلى أنَّ الإنصاف ـ كما يعبر ـ أنّ هـذه الاشـكالات لا يرد شيء منها على الاستدلال بالآية الشريفة، فالآية تدل على نجاسة المشركين مطلقاً كتابياً كانوا أم غيرهم؛ في ذلك الزمان أو من يوجد فيمـا بعده إلى قيام القيامة، من كان منهم في مكـة وفي سـائر القبائـل العربيـة، الذين يأتون إلى الحج ويدخلون المسجد الحـرام للطـواف حـول الكعبـة وأولئك كلهم كانوا عبدة الأصنام...».

حتى أنه ذكر من جملة القواعد الفقهية المشهورة: «رقـم ٥٥ قاعـدة كل كافر نجس كتابيـاً كـان أو غـيره»، ثم بعـد أن يقسـم الكـافر أربعـة أقسام..، ينتهي أخيراً إلى أنّ المراد من هذه القاعدة نجاسة كل قسـم مـن الأقسام الأربعة المذكورة. وأن المشهور عند الإمامية هـو القـول بنجاسـة الكفار مطلقاً ذمياً كانوا أو حربياً كتابياً أو غير كتابي، بل ادعـى الإجمـاع عليها جمع من الفقهاء المتقدمين وغيرهم.. ومقابل المشهور أو المجمع عليه قول شاذ من بعض الإمامية بطهارة خصوص الكتابي منهم.[1]

---

١. القواعد الفقهيـة، للسـيد البجنـوردي ٥ : ٣٢٩ ـ ٣٣٨. بتصـرف وتلخـيص. وانظـر مصادره في هامش الصفحة: ٣٣١ ، ٣٣٣.

فيما يستظهر السيد الخوئي من الآية أنّ المراد من النجاسة القـذارة، جاء هذا بعد أن يقـول: «إنّ الـنجس عنـد المتشـرعة وإن كـان بـالمعنى المصطلح عليه، إلاّ أنه لم يثبت كونه بهذا المعنى في الآية المباركة؛ لجواز أن لا تثبت النجاسة بهذا المعنى الاصطلاحي على شيء من الأعيان النجسـة في زمان نزول الآية أصلاً، وذلك للتدرّج في بيان الأحكام، بل الظاهر أنه في الآية المباركة بالمعنى اللغوي وهو القذارة؛ وأي قذارة أعظم وأشد مـن قذارة الشرك. وهذا المعنى هو المناسب للمنـع عـن قـربهم مـن المسـجد الحرام، حيث إنّ النجس بالمعنى المصطلح عليه لا مانع من دخوله المسجد الحرام فيما إذا لم يستلزم هتكه، فلا حرمة في دخـول الكفـار والمشـركين المسجد من جهة نجاستهم بهذا المعنى، وهذا بخلاف النجس بمعـنى القـذر؛ لأنّ القذارة الكفرية مبغوضة عند الله سبحانه، والكافر عدو الله وهو يعبد غيره، فكيف يرضى صاحب البيت بدخـول عـدوّه بيتـه؟ بـل وكيـف يناسب دخول الكافر بيتاً يعبد فيه صاحبه وهو يعبد غيره؟ هذا كلّه أولاً، فثانياً ... وثالثاً...».

لينتهي أخيراً إلى قوله: «فالإنصـاف أنّ الآيـة لا دلالـة لهـا علـى نجاسة المشركين فضلاً عن دلالتها على نجاسـة أهـل الكتـاب، إلاّ أنـك عرفت أنّ نجاسة المشركين مورد التسالم القطعي بين أصحابنا قلنـا بدلالـة

الآية أم لم نقل، كما أنّ نجاسة الناصب ومنكري الصانع مما لا خلاف فيه ...».[١]

والشيخ مكارم الشيرازي، بعد أن يذكر معاني واستعمالات عديدة لمفردة ﴿نَجَسٌ﴾؛ وأنها تأتي للتأكيد والمبالغة والوصف، وأنّ النجاسة والنجس يطلقان على كل قذارة، وهي على نوعين: قذارة حسية، وقذارة باطنية. و كل ما ينفر منه الإنسان يقال عنه: إنه نجس.

وأنها تستعمل حتى فيما لا مفهوم للنجاسة الظاهرية فيه ـ فمثلاً يسمي العرب الأمراض الصعبة المزمنة أو التي لا علاج لها بـ "النجس" كما يطلق على الشخص الشرير، أو الساقط خلقياً، أو الشيخ الهرم، أنه نجس..

يقول: ومن هنا يتضح أنه مع ملاحظة ما جاء في الآية ـ محل البحث ـ لا يمكن الحكم بأنّ إطلاق كلمة نجس على المشركين تعني أنّ أجسامهم قذرة كقذارة البول والدم والخمر وما إلى ذلك، أو لعقيدتهم "الوثنية" فهي قذارة باطنية، ومن هنا لا يمكن الاستدلال بهذه الآية على نجاسة الكفار، بل ينبغي البحث عن أدلة أخرى..

ثمَّ هو أيضاً في تعليقته على العروة الوثقى قال: "لا دليل على نجاسة الكفار، أما الكتابي فظاهر كثير من الروايات المعتبرة طهارتهم ذاتاً،

---

١. التنقيح ٢ : ٤٣ ـ ٥٤، كتاب الطهارة.

وأنّ نجاستهم عرضية، وظاهر بعض آيات الكتاب العزيز أيضاً ذلك، ويظهر من غير واحد من الروايات استحباب التنزه مما في أيديهم اجتناباً عما يكون فيهم غالباً من النجاسات العرضية، وبها يجمع بين ما دل على الطهارة وما يظهر منه النجاسة ووجوب الاجتناب، وأما غير الكتابي فهو أيضاً لا دليل على نجاسته من غير فرق بين أقسامه وإن لم يدل دليل على طهارته لخروجه من سياق الأخبار جميعاً فيؤخذ فيه بأصالة الطهارة فيهم".[1]

هذا، وأنّ السيد الشهيد الصدر يقول: «إنّ ابتلاء المسلمين بالتعايش مع أصناف من الكفار في المدينة وغيرها على عهد النبي صلى الله عليه وآله كان على نطاق واسع، واختلاطهم مع المشركين كان شديداً جداً خصوصاً بعد صلح الحديبية، ووجود العلائق الرحمية وغيرها بينهم، فلو كانت نجاستهم مقررة في عصر النبوة لانعكس ذلك وانتشر وأصبح من الواضحات، ولسمعت من النبي صلى الله عليه وآله توضيحات كثيرة بهذا الشأن، كما هو الحال في كل مسألة تدخل في محل الابتلاء إلى هذه الدرجة. ولا توجد في مثل هذه المسألة دواعي الإخفاء، وأي داع إلى ذلك مع ظهور الإسلام، وعدم منافاة هذا الحكم مع أغراض أولياء الأمر بعد النبي صلى الله عليه وآله. وحتى لو افترضنا أنّ الحكم بالنجاسة كان في ظرف نزول سورة التوبة التي نزلت بعد الفتح، فإنّ طبيعة

---

١. تفسير الأمثل: الآية، وتعليقات على العروة الوثقى : ٢٧ للشيخ مكارم الشيرازي؛ وانظر مفردات القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني؛ ومجمع البيان، للطبرسي : الآية.

الأشياء كانت تقتضي شيوعه وانتشاره أيضاً، فعدم وجدان شيء من هذه اللوازم العادية عند ملاحظة التاريخ العام يشكل عامل تشكيك في مسألتنا».[١]



إذن ففقهاء الشيعة منقسمون، فهناك من يرى نجاسة الكافر ذاتاً بجميع أصنافه، وهو مشهور الإمامية كما ذكروا، فيما بعضهم يستثني أهل الكتاب، فيرى طهارتهم. أما القول بعدم نجاسة الكافر ذاتاً سواء أكان كتابياً أم غير كتابي، أي مطلقاً فقد ذهب إليه فقهاء آخرون: الشيخ محمد الصادقي الطهراني، الشيخ إبراهيم الجناتي، والسيد فضل الله، والشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ولعلّ هناك غيرهم لم يتسنَّ لي التأكد من أقوالهم.

وقفة:

هذا وأنَّ القول بالنجاسة العينيّة، وإنّ "أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير" وبالذات حين يعمّم ويُتجاوز به وثنيي العرب ومشركي مكة يومذاك إلى غيرهم من أُمَم وعصور، ألا يتنافى لا فقط مع التكريم والتفضيل الواردين في الآية التالية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ... وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.[٢] بل مع ما حملته الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

---

١. شرح العروة، للسيد الشهيد الصدر ١ : ٢٤٣، ففيه بحث مفصل عن مسألة النجاسة هذه.

٢. الإسراء : ٧٠.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.[1] وبالذات في دعوتها للتعارف والوئام، وهي الغاية من جعلنا شعوباً وقبائل؟!

ثمَّ ألا يُشكل حاجزاً وعائقاً من الصعوبة تجاوزه في هذا المشروع النبيل والرائع، وحتى في الدعوة إلى دين الله تعالى وتبليغه؟ وبالتالي لا فقط يُفشله بل يُبدله بتناحرٍ وخصامٍ وتعاندٍ، وبانتهاءٍ للتعايش بين الشعوب، وللإلفة الاجتماعية بين الناس، وهم كما عبر عنها الإمام عليٌّ عليه السلام: «... صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»! والله يعلم بأنَّ ﴿بَنِى ءَادَمَ﴾ و ﴿شُعُوباً وَقَبَآئِلَ﴾ ليسوا على دين واحد، أو من مذهب واحد، أو أمّة واحدة، بل سيؤول أمرهم إلى أديان متعددة، ومذاهب متفرقة، وإلى طوائف أخرى لا دين لها، وقد اختلفت ألوانهم وألسنتهم وأعرافهم...، ومع هذا منَّ عليهم جميعاً بالتكريم وأطلقه، ودعانا للتعارف لا للتناحر! وأنّ أكرم الجميع أتقاهم؟! آمل أن أجد الدرس الفقهي وقد تجاوز هذه المسألة، كما فعل في العقود الأخيرة (مع أهل الكتاب) و (مع مطلق الإنسان) فأفتى بطهارتهم، بعيداً عن الإجماع وعقدته.. بعد أن أدخلهم جميعاً في دائرة النجس قروناً عديدة!!

---

١. الحجرات : ١٣.

**عند أهل السنة:**

ومن العجيب قول الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ): «أجمع المسلمون على نجاسة المشركين والكفار اطلاقاً وذلك أيضاً يوجب نجاسة أسئارهم».

فالمشهور عندهم أنّ الكافر الحي طاهر لأنه آدمي، والآدمي طاهر سواء أكان مسلماً أم كافراً لأدلة، منها الآية: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ**﴾. وليس المراد من قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾، نجاسة الأبدان، ولا النجاسة الذاتية وأنّ ذات المشرك نجسة كنجاسة الخنازير، وإنما المراد نجاسة ما يعتقدونه، والنجاسة المعنوية التي حكم بها الشارع.

وراحوا يوأوّلون الآية محل الكلام، بأنّ المراد بنجاستهم: خبث باطنهم وسوء سريرتهم وبطلان اعتقادهم، أو المراد: نجاسة ظاهرهم بالعرض لا ذاتاً، نظراً إلى أنهم لا يراعون الطهارة، ولا يغتسلون من الجنابة، ولا يتجنّبون النجاسات، بل يلابسونها ويباشرونها غالباً كشربهم الخمور وأكلهم لحم الخنزير، فيكون المعنى أنّهم ذو نجاسة، وعلى هذا حمل صاحب الكشّاف هذه الآية.

وهذا الشوكاني في تفسيره يقول: وذهب الجمهور من السلف والخلف ومنهم أهل المذاهب الأربعة إلى أنّ الكافر ليس بنجس الذات؛ لأنّ الله سبحانه أحلّ طعامهم، وثبت عن النبيّ صلى الله عليه وآله في ذلك من فعله،

وقوله، ما يفيد عدم نجاسة ذواتهم، فأكل في آنيتهم، وشرب منها، وتوضأ فيها، وأنزلهم في مسجده.

وهذا ابن قدامة ذكر أنَّ الآدمي طاهر وسؤره طاهر سواء كان مسلماً أو كافراً عند عامة أهل العلم.

وهذا الجزيري، وهو يذكر الأعيان والأشياء الطاهرة ويصفها بأنها كثيرة، ويبدؤها بالإنسان حيث يقول: "منها الإنسان سواء كان حيّاً أو ميّتاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾. وعن الآية مورد كلامنا يقول: أما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، فالمراد به النجاسة المعنوية التي حكم بها الشارع، وليس المراد أنّ ذات المشرك نجسة كنجاسة الخنزير". دون أن يذكر قولاً مخالفاً لقوله هذا من المذاهب الأربعة.

وهذه خلاصة ما في محاسن التأويل:

فقد دلت الآية على نجاسة المشرك، كما في الصحيح: «المؤمن لا ينجس».

**النجاسة البدنية**: فقد ذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وأنَّ من صافحهم فليتوضأ..

فيما الجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأنّ الله تعالى أحلّ طعام أهل الكتاب.

ويرد على دليلهم هذا حين يقول: والاستدلال بكونه تعالى أحلّ طعام أهل الكتاب غير ناهض؛ لأنّ البحث في المشركين. وقاعدة التنزيل الكريم، التفرقة بينهم وبين أهل الكتاب، فلا يتناول أحدهما الآخر فيه.

وقال زيد والمؤيد بالله والحنفية والشافعية: إنّ المشرك ليس نجس العين؛ لأنه صلى الله عليه وآله توضأ من مزادة مشرك، واستعار من صفوان دروعاً ولم يغسلها، وكانت القصاع تختلف من بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وآله إلى الأسارى ولا تغسل، وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله يطبخون في أواني المشركين ولا تغسل. وأوّلوا الآية بوجوه: أي ذوو نجس؛ لأنّ معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، فهو مجاز عن خبث الباطن، وفساد العقيدة، مستعار لذلك، أو هو حقيقة؛ لأنهم لايتطهرون ولايغتسلون، ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها، وكلٌّ متأوّلٌ ما احتجّ به الآخر. انتهى.

أما محمد رشيد رضا، وبعد أن يذكر النجس في عرف الفقهاء: "وهو ما يجب التطهير لما يصيبه سواء أكان قذراً في الحس كالبول والغائط أم لا، كالخمر والخنزير والكلب عند من يقول بنجاسة أعيانها وهم الأكثرون.

يذكر أنَّ بعضهم قال بنجاسة أعيان المشركين ووجوب تطهير ما تصيبه أبدانهم مع البلل. وحكي هذا القول عن ابن عباس والحسن البصري ومالك وعن الهادي والقاسم والناصر من أئمة العترة وهو مذهب جمهور الظاهرية والشيعة الإمامية.

لكنه بعد الذي ذكره يقول: وجمهور السلف والخلف على خلافه ومنهم أهل المذاهب الأربعة.

ثمَّ يذكر أنّ الآية ليست نصّاً ولا ظاهراً راجحاً فيه، والسنة العملية لا تؤيده بل تنفيه، ولا سيما قول من يجعل أهل الكتب مشركين كالإمامية، فإنّ إباحة طعام أهل الكتاب ونكاح نسائهم نزل في سورة المائدة وهي آخر ما نزل، فهي بعد سورة التوبة بالإجماع وإباحتهما تستلزم طهارتهما..

ثمَّ يذكر أنّ من المعلوم القطعي لكل مطلع على السيرة النبوية وتاريخ ظهور الإسلام بالضرورة أنّ المسلمين كانوا يعاشرون المشركين ويخالطونهم ولا سيما بعد صلح الحديبية إذ امتنع اضطهاد المشركين وتعذيبهم لمن لا عصبية له ولا جوار يمنعه منهم، وكانت رسلهم ووفودهم ترد على النبيّ صلى الله عليه وآله ويدخلون مسجده، وكذلك أهل الكتاب كنصارى نجران واليهود، ولم يعامل أحد أحداً منهم معاملة الأنجاس ولم يأمر بغسل شيء مما أصابته أبدانهم، بل روي عنه ما يدل على خلاف ذلك مما احتج به الجمهور على طهارة أبدانهم من الأحاديث الصحيحة، ومنها أنه صلى الله عليه وآله توضأ من مزادة مشركة، وأكل من طعام اليهود، وربط ثمامة بن أثال وهو مشرك بسارية من سواري المسجد، ومنها إطعامه هو وأصحابه للوفد من الكفار ولم يأمر صلى الله عليه وآله بغسل الأواني التي كانوا يأكلون ويشربون فيها، و روى أحمد و أبو داود من حديث جابر بن عبد الله: «كنا نغزو مع

رسول الله صلى الله عليه وآله فنصيب من آنية المشركين وأسقيتهم فنستمتع بها ولا يعيب ذلك علينا»".

وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ مسألة ربط ثمامة بن أثال، حين كان مشركاً في المسجد النبويّ في المدينة، التي طالما يستشهدون بها ، فإنها ـ إن صحت ـ وقعت قبل نزول الآية، وهذا كافٍ لردّ الاستدلال بها على المطلوب.

ومع هذا فهناك إجابتان أُخريان في تفسير القرطبي، وهكذا أيضاً مسألة الوضوء والأكل من طعام اليهود وأمثالها لو صحت، لعلّها ـ وإن لم يتيسر لي تاريخها ـ وقعت قبل نزول الآية.

ويواصل محمد رشيد رضا كلامه قائلاً:

"... وقيل المراد بنجاستهم تلبسهم بها دائماً لعدم تعبدهم بالطهارة كالمسلمين، وقول الجمهور بأنّ المراد النجاسة المعنوية أظهر، والجمع بين القولين أولى لأنه أعم.

وأما القول بنجاسة أعيانهم فهو لا معنى له في لغة القرآن إلا قذارتها الذاتية ونتنها، وذوات المشركين كذوات سائر البشر بشهادة الحس، ومن كابر شهادة الحس كابر دلالة النظر العقلي واللغوي بالأولى. ولا يصح أن تكون نجاسة تعبدية إلا بنص صريح في إيجاب غسل

ما اتصل بها من البلل، وهو لا وجود له وإنما الموجود خلافه كما تقدم...".[١]

و هذا لا يعني عدم وجود فريق منهم يذهبون إلى النجاسة العينية، أي أنّ الكافر نجس العين، أخذاً بظاهر الآية؛ لأنه الحقيقة كما يذكر. ويؤيد ذلك حديث أبي ثعلبة الخشنيّ فإنه قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: إنا نأتي أرض أهل الكتاب فنسألهم آنيتهم، فقال صلى الله عليه وآله: «اغسلوها ثم اطبخوا فيها». وقد نسب القول بهذا إلى بعض المفسرين اليمنيّين: مذهب القاسم والهادي وغيرهما.

وكما جاء في نيل الأوطار في حديث: «إنّ المسلم لا ينجس» قال: تمسّك بمفهومه بعض أهل الظاهر، وحكاه في البحر عن الهادي والقاسم والناصر ومالك فقالوا: إنّ الكافر نجس عين، وقوّوا ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، وأيضاً في محاسن التأويل: وقال بعض المفسرين اليمنيّين: مذهب القاسم والهادي وغيرهما؛ أنّ الكافر نجس العين، آخذاً بظاهر الآية، لأنه الحقيقة. ويؤيد ذلك حديث أبي ثعلبة الخشنيّ فإنه قال

---

١. تهذيب الأحكام ١ : ٢٢٣ للشيخ الطوسي؛ والكشاف، للزمخشري؛ وتفسير فتح القدير، للشوكاني؛ والمغني، لابن قدامة ١ : ٤٣؛ كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، لعبدالرحمن الجزيري ١ : ٩ مبحث الأعيان الطاهرة؛ تفسير محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ).بتصرف؛ وتفسير المنار: الآية.

للنبي ﷺ: إنا نأتي أرض أهل الكتاب فنسألهم آنيتهم، فقال ﷺ: «اغسلوها ثم اطبخوا فيها».

والفخر الرازي القائل بعد أن يذكر ما نقله صاحب «الكشاف» عن ابن عباس أنّ أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير، وعن الحسن من صافح مشركاً توضأ، وهذا هو قول الهادي من أئمة الزيدية: «وأما الفقهاء فقد اتفقوا على طهارة أبدانهم»، ثمّ أردف ذلك بقوله: «واعلم أنّ ظاهر القرآن يدل على كونهم أنجاساً فلا يرجع عنه إلا بدليل منفصل، ولا يمكن ادعاء الإجماع فيه لما بيّنّا أنّ الاختلاف فيه حاصل».. ثمَّ راح يتوسع في ذلك، حيث نقل وجوهاً ثلاثة في تأويل الآية وعقّبها بقوله: «واعلم أنّ كل هذه الوجوه عدول عن الظاهر بغير دليل».[1]

من هذا يتضح أنّ المسألة خلافية بقدرٍ ضيّقٍ بينهم، فجمهورهم يذهب إلى طهارة الكفّار بأصنافهم إلاّ جمع قليل منهم من الصحابة والتابعين والمفسّرين وفقهائهم، كما ذكرنا ما تيسر لنا منهم.

### ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾

**القُرْبُ لغةً**: نقيضُ البُعْدِ، قَرُبَ الشيءُ بالضم يَقْرُبُ قُرْباً وقُرْباناً وقِرْباناً، اَيْ دَنا فهو قريبٌ .. فهو من (قَرُبَ) الشيءُ ـ قَرَابة، وقُرْباً،

---

١. تفسير محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ)؛ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، لمحمد الشوكاني (ت١٢٥٥هـ) ١ : ٣١؛ ومفاتيح الغيب، للرازي : الآية.

وقُرْبة، وقُرْبَى، ومَقْرُبَة: دنا. فهو قريب. ويقال: قَرُب منه. وقرب إليه.. وهو أيضاً من الفعل قَربَ الشيءَ ـ َ قُرْباً، وقُرْباناً: دنا منه. و ـ باشره. وللتشديد في النهي عن الأمر يقال: لا تَقْرَبه. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾، و: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾. و: الرجل زوجته جامعها. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾. هذا في اللغة.

وأما إعراباً: فلا: الفاء الفصيحة، ولا: الناهية، ويقربوا: فعل مضارع مجزوم بحذف نونه بسبب لا الناهية، والواو: فاعل، والمسجد: مفعول به، والحرام صفته، بعد عامهم هذا: الظرف متعلق بيقربوا، وعامهم مضاف إليه، والهاء: في محل جرٍّ بالإضافة، وهذا نعت لعامهم أو بدل منه وهو العام التاسع للهجرة؛ هذا إعراباً.[1]

إذن فهناك علتان تحملهما الآية لمنع المشركين من المسجد الحرام، سواء أريد به المسجد نفسه أم الحرم كلّه، وهما: الشرك. النجاسة. وللمفسرين وكذا للفقهاء قراءآت متعددة، قد تتوافق في بعض نتائجها، وتختلف في أخرى، بحسب فهمهم لكلتا العلّتين.

ابن عاشور: وقوله: ﴿فَلاَ يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ﴾، ظاهره نهي للمشركين عن القرب من المسجد الحرام. ومواجهةُ المؤمنين بذلك تقتضي نهي

---

١. لسان العرب، لابن منظور؛ والمعجم الوسيط: قرب؛ وإعراب القرآن الكريم، لمحي الدين الدرويش ٤ : ٨٦.

المسلمين عن أن يقرب المشركون المسجد الحرام. جعل النهي عن صورة نهي المشركين عن ذلك مبالغة في نهي المؤمنين حين جُعلوا مكلّفين بانكفاف المشركين عن الاقتراب من المسجد الحرام من باب قول العرب: «لا أرينّك ههنا» فليس النهي للمشركين على ظاهره.

وعن المراد من النهي عن اقترابهم من المسجد الحرام ذكروا التالي:

ـ هو النهي عن دخولهم المسجد مطلقاً..

ـ هو النهي عن الحج والعمرة، لا عن الدخول مطلقاً..

هو النهي عن حضورهم الحج.. لأنّ مناسك الحجّ كلّها تتقدّمها زيارة المسجد الحرام وتعقبها كذلك، ولذلك لمّا نزلت «براءة» أرسل النبيّ صلى الله عليه وآله بأن يُنادَى في الموسم أن لا يحجّ بعد العام مشرك..

ـ وقيل: المراد من القربان أنْ يمنعوا من تولي المسجد الحرام والقيام بمصالحه، ويعزلوا عن ذلك. وقال جابر بن عبد الله وقتادة: لا يقرب المسجد الحرام مشرك إلا أن يكون صاحب حرية، أو عبد المسلم،...[١]

إذن فهو نهيٌّ عن أن يقربوا الحرم بأن يُحظر عليهم دخوله فضلاً عن دخولهم مسجد الطهر والطهارة، وسواء بحظر أدائهم للمناسك؛ فلا يحجوا ولا يعتمروا كما كانوا يفعلون في الجاهلية، أم بولاية البيت، أو عمارته، أو أي شأنٍ من شوؤنه، وجاء ليسجل الفارق بين منهجين

١. التحرير والتنوير؛ تفسير البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤ هـ).

لا يلتقيان ولا يتعايشان.. وتلك غاية في تحريم وجودهم بالمسجد الحرام، حتى لينصبّ النهي على مجرد القرب منه، ويعلل بأنهم نجس وهو الطهور![1]

لقد انطلق هذا الجزء من الآية؛ ليبين أنَّ النهي عن الاقتراب جاء للمبالغة أو للمنع من دخول الحرم، وقد فسّر بعضهم القرب المذكور بالدخول فقال: فلا يقربوا: فلا يدخلوا، ولم يفرقوا بين قوله: فَلاَ يَقْرَبُوا وقوله: فلا يدخلوا، فإنّ القرب لغةً هو الدنو، ويعبر به عما كان قريباً، وهو غير الدخول فيه.. كما أنَّ القول: إنَّ المشرك عندما يأتي إلى حدود الحرم فإنه يصبح قريباً من المسجد، محل تأمل، إذ كيف يكون قريباً من المسجد، وبعض حدود الحرم تبعد عن المسجد أكثر من واحد وعشرين كيلومتراً، وعهد النزول لم يحظ بوسائل نقل حديثة من شأنها أن تقرّب البعيد، وتسرّع المسير، وتسهّل الوصول؟!

ومع أنّ هذا الجزء من الآية صار موضع بحث حول المقصود من المسجد الحرام وأنه يشمل فقط المسجد نفسه أو الحرم الأكثر سعةً، لكن المهم أنَّ هناك في الآية أمراً للمؤمنين بإقصاء المشركين سواء أكان "المرادُ بالمسجدِ الحرام: نفس المسجد، أو جميع الحرم، وهو الأقربُ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وذلك لأنّ موضع

---

١. في ظلال القرآن : الآية.

التجارات ليس هو عين المسجد؛ فلو كان المقصود من هذه الآية المنع من المسجد خاصة، لما خافُوا بسبب هذا المنع من العَيْلَة، وإنَّما يخافون العيلة إذا منعوا من حضور الأسواقِ والمواسم، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[١] مع أنهم أجمعُوا على أنه إنَّما رفع الرسول ﷺ من بيت أم هانىء...[٢]

وإذا كانت القضية في هذا المستوى ـ ..الإيمان يمثّل عمق الطهارة وحقيقة النقاء وينبوع الصفاء، فإنّ الشرك يمثل النقيض من ذلك، إنه يمثل قذارة الرواسب المتعفنة من خلال ظلمات السنين وأوحال التاريخ التي يعيش معها الإنسان عفن الفكر والروح والشعورـ فإنَّ من طبيعة هذا الواقع أن لا يقربوا المسجد الحرام الذي جعله الله ساحةً للنقاء وللطهارة، ليتطهر الناس فيها من ذنوبهم وأثقال أخلاقهم وعاداتهم التي تقذّر فيهم معنى الحياة، فكيف يمكن أن يقترب إليها هؤلاء الذين تمثل عبادتهم للأصنام كل معاني القذارة الروحية والفكرية والعمليّة..؟![٣]

حقّاً إنَّ وجودهم فيه إن هو إلا انتهاك لحرمته، وهو يتنافى وقدسيته، ومركزيته الإيمانية؛ "ومن الطهارة حفظ البيت من الوسخ

---

١. الإسراء : ١.

٢. تفسير اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (ت٨٨٠ هـ)؛ وأحكام القرآن، للقرطبي وغيرهما.

٣. من وحي القرآن : الآية.

والقذارة، فيأثم المسلمون لو قصروا في ذلك، ويزداد واجب التطهير كلما قرب من البيت، فآكده وأعظمه مسجد الكعبة، فيخلّص من كل أنواع النجس والرجس والوسخ، ثم يتلوه في الوجوب كافة الحرم إلى حدوده، ثم يتلوها جوارها لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ...﴾ فقال: فلا يقربوا ولم يقل فلا يدخلوا، فالتطهير يعمُّ جوار الحرم؛ ليس خالصاً إلى حدوده، بل يكون إلى خارجه بالقدر الذي يعدُّ فيه الوالج إليه قريباً منه".[1]

وهو نهيٌّ عام لمشركي مكة والجزيرة وغيرها، فهم سكنة المسجد الحرام وهم رواده ووافدوه من القبائل الأخرى في الجزيرة العربية وأطرافها للحج والعمرة، وقايةً للمسلمين وتحصيناً لساحتهم مما يحمله الوثنيّون من عقائد وأفكار ومكائد، وإبعاداً لهم عن مواضع الطهر والعبادة وعدم تلويثها بسلوكياتهم المنحرفة.. يقول الزركشي: "المراد منعهم من الحج وحضور مواضع النسك". وقال الزمخشري: "إنّ معنى قوله: «فلا يقربوا المسجد الحرام» فلا يحجوا ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهلية، ويدل عليه قول عليّ كرمّ الله وجهه حين نادى ببراءة: لا يحج بعد عامنا هذا مشرك...".[2]

---

١. مقالة تطهير البيت، للدكتور لطف الله بن ملا عبد العظيم خوجه.

٢. البرهان في علوم القرآن ٢: ٣٨٥ النوع الثالث والأربعون في بيان حقيقته ومجازه؛ والكشاف، للزمخشري؛ والبحر المحيط، أبوحيان (ت٧٥٤ هـ).

وقد جاء: «لا يحج بعد عامنا هذا مشرك» ضمن أربعة أمور بلّغها **الإمام عليٌّ عليه السلام في موسم الحج في السنة التاسعة للهجرة**، لتبيّن "أنه لا يمكن التعايش بين منهجين للحياة بينهما هذا الاختلاف الجذري العميق البعيد المدى الشامل لكلّ جزئية من جزئيات الاعتقاد والتصور، والخلق والسلوك، والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ـ والإنساني ـ وهو الاختلاف الذي لابدَّ أن ينشأ من اختلاف الاعتقاد والتصور.. منهجين للحياة أحدهما يقوم على عبودية العباد لله وحده بلا شريك؛ والآخر يقوم على عبودية البشر للبشر، وللآلهة المدعاة، وللأرباب المتفرقة. ثم يقع بينهما التصادم في كلّ خطوة من خطوات الحياة؛ لأنَّ كلّ خطوة من خطوات الحياة في أحد المنهجين لابدَّ أن تكون مختلفة مع الأخرى، ومتصادمة معها تماماً، في مثل هذين المنهجين وفي مثل هذين النظامين...". فكانت هذه الآية هي "الخطوة الحاسمة في العلاقات بين المعسكر الإسلامي في الجزيرة وسائر معسكرات المشركين.. جاء موعدها، وتمهدت لها الأرض، وتهيأت لها الأحوال، وأصبحت هي الخطوة الطبيعية في أوانها المحتوم أن «**لا يحجّ بعد عامنا هذا مشرك، ولا يطوفنَّ بالبيت عريان، ولا يدخل البيت إلا مؤمن، ومن كانت بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله مدة فإنّ أجله إلى أربعة أشهر، فإذا انقضت الأربعة الأشهر فإنّ الله بريءٌ من المشركين ورسوله**». «**لا يدخل الكعبة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع مؤمن وكافر في المسجد**

الحرام بعد عامه هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله عهد فعهده إلى مدته ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر». «يا أيها الناس إني رسول الله إليكم بأن لا يدخل البيت كافر ولا يحجّ البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عهد عند رسول الله فله عهده إلى أربعة أشهر ومن لا عهد له فله مدة بقية الأشهر الحرم». «لا يطوفنَّ بالبيت عريان ولا يحجن البيت مشرك ومن كانت له مدة فهو إلى مدته ومن لم يكن له مدة فمدته أربعة أشهر». حتى أني وجدت: «ولا يقرب المسجد الحرام بعد هذا العام مشرك». «ولا يقربن المسجد الحرام بعد عامنا هذا مشرك». وكأنه اقتباس من الآية نفسها.[1]

﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ :

بعد أن عرفنا أنَّ الآية خطاب للمؤمنين أن لا يُمكّنوا المشركين من قرب المسجد الحرام، ولكن بعد عامهم هذا، أي بعد العام التاسع الذي تمَّ فيه إبلاغُ كلّ هذا الخطاب، فالعام العاشر إذن هو عام تطبيق للنهي الوارد في الآية بحظر قربهم من البيت المبارك وحرمه.

وإتماماً لما ذكرناه عن ابن عاشور: "ولذلك لمّا نزلت «براءة» أرسل النبيُّ صلى الله عليه وآله بأن ينادَى في الموسم أن لا يحجّ بعد العام مشرك" جاء عنه

---

١. سيد قطب، في ظلال القرآن : الآية؛ وتفسير العياشي ٢ : ٧٦ الآية؛ وعنه بحار الأنوار، للعلامة المجلسي ٣٥ : ٢٩٦.

التالي: "وقرينة ذلك توقيت ابتداء النهي بما بعد عامهم الحاضر. فدلّ على أنّ النهي منظور فيه إلى عمل يكمل مع اقتراب اكتمال العام وذلك هو الحجّ. ولولا إرادة ذلك لما كان في توقيت النهي عن اقتراب المسجد بانتهاء العام حكمة ولكان النهي على الفور"، ثمَّ بعد أن يذكر التالي: "وقد فرّع على نجاستهم بالشرك المنع من أن يقربوا المسجد الحرام" يقول : أي المنع من حضور موسم الحجّ بعد عامهم هذا. ثمَّ يواصل قائلاً: والإشارة إلى العام الذي نزلت فيه الآية وهو عام تسعة من الهجرة، «وهو الصحيح ـ كما يذكر ٱبن العربيّ ـ الذي يعطيه مقتضى اللفظ، وإنّ من العجب أن يقال: إنه سنة تسع، وهو العامُ الذي وقع فيه الأذان. ولو دخل غلامُ رجل داره يوماً فقال له مولاه: لا تدخل هذه الدار بعد يومك، لم يكن المراد اليوم الذي دخل فيه".[1]

فقد حضر المشركون موسم الحجّ فيه، وأعلن لهم فيه أنّهم لايعودون إلى الحجّ بعد ذلك العام، وإنّما أمهلوا إلى بقية العام؛ لأنّهم قد حصَلوا في الموسم، والرجوع إلى آفاقهم متفاوت «فأريد من العام موسم الحجّ، وإلاّ فإنّ نهاية العام بانسلاخ ذي الحجّة، وهم قد أمهلوا إلى نهاية المحرم بقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾.[2]

---

١. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي : الآية.

٢ . التوبة: ٢.

وعن إضافة الضمير يقول: وإضافة (العام) إلى ضمير (هـم) لمزيـد اختصاصهم بحكم هائل في ذلك العام كقول أبي الطيب:

**فإن كان أعجبكم عامكم    فعودوا إلى مصر في القابل**

ووصف (العام) باسم الإشارة لزيادة تمييزه وبيانه.[١]

**﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**

**العيلة لغةً**: الفقر، يقال: عال الرجل يعيل عيلة فهو عائل إذا افتقـر، قال الشاعر أحيحة بن الجلاح:

**وما يدري الفقير متى غناه    وما يدري الغني متى يعيل**

وقرأ ابن مسعود وعلقمة من أصحابه: عائلة وهو مصدر كالعاقبـة، أو نعت لمحذوف أي: حالاً عائلة..

**وإعراباً**: الواو عاطفة، وإن شرطية، وخفتم فعـل وفاعـل في محـل جزم فعل الشرط، وعيلة مفعول به، فسوف الفاء رابطـة وسـوف حـرف استقبال، ويغنيكم الله فعل مضارع ومفعول به وفاعـل والجملـة في محـل جزم جواب الشرط، ومن فضـله جـار ومجـرور متعلقـان بيغنـيكم، وإن

---

١ . التحرير والتنوير : الآية.

شرطية وشاء فعلها والجواب محذوف دلّ عليه ما قبله أي فسوف يغنيكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إنّ واسمها وخبراها.[١]

أسباب النزول:

ذكروا فيها ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبن عباس قال: كان المشركون يجيئون إلى البيت، ويجيئون معهم بالطعام يتجرون فيه، فلما نهوا عن أن يأتوا البيت، قال المسلمون: من أين لنا الطعام، فأنزل الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ شقَّ ذلك على المسلمين، وقالوا: من يأتينا بالطعام وبالمتاع، فأنزل الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾.[٢]

ما إن نزلت الآية تحمل النهيَّ، حتى راحت الخواطر تختلج في قلوب المسلمين مما سيسببه منع المشركين من المجيء للحرم من شحة في المواد التجارية والأطعمة أو انعدام لها، وقد اعتادوا جلبها معهم لبيعها على أهل مكة، وشراء غيرها منهم، مما يؤدي إلى كسادٍ وانتشار للفقر وقلّة للرزق، وهذا ما كانوا يخافونه، حتى وكأنّ بعضهم راح يهمس بإذن الآخر: قد كنا نصيب من بياعاتهم فى الموسم، وقبل أن يجهروا بهواجس

١ . تفسير البحر المحيط، أبوحيان (ت٧٥٤هـ)؛ وإعراب القرآن.

٢ . تفسير جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت٣١٠ هـ) وغيره.

الخوف والقلق هذه، والتي ربما قذفها الشيطان في نفوسهم، وقبل أن يشكوها لرسول الله صلى الله عليه وآله جاء الوعد من السماء سريعاً في ذيل الآية نفسها، التي حرمت اقتراب المشركين من المسجد الحرام، يطمئن المسلمين ويتكفل علاج ما قد يصيبهم من حاجة وعوز..، فقد "وعد المؤمنين بأن يغنيهم الله عن المنافع التي تأتيهم من المشركين حين كانوا يفدون إلى الحجّ فينفقون ويهدُون الهدايا فتعود منهم منافع على أهل مكة وما حولها، وقد أصبح أهلها مسلمين فلا جرم أن ما يرد إليها من رزق يعود على المؤمنين".[1]

ومن جانب آخر، فالآية أيضاً تنصُّ على الأمر الواقع وتعترف بما سيتركه حظرها للمشركين من دخول المسجد أو الاقتراب منه؛ حين تشير إلى أهمية الوضع الاقتصادي للناس، ومدى ما يتركه من آثار عليهم، إذا ما تعرض أو شعروا بأنه قد يصاب بشيء نتيجة فعل أو موقف ما "الموسم الاقتصادي الذي ينتظره أهل مكة؛ والتجارة التي يعيش عليها معظم الظاهرين في الجزيرة؛ ورحلة الشتاء والصيف التي تكاد تقوم عليها الحياة... إنها كلها ستتعرض للضياع بمنع المشركين من الحج؛ وبإعلان الجهاد العام على المشركين كافة..".[2]

---

١ . التحرير والتنوير : الآية.

٢ . سيد قطب، في ظلال القرآن.

«فإذا خشيتم من انقطاعهم عن الحج، بسبب هذا التشريع، فقراً وحاجة من خلال تعطيل الأسواق التي كانوا يحركونها بالشراء والبيع، ونقصان التجارة التي كانوا يمارسونها، فلا تحملوا همّاً لذلك؛ لأنّ الله قد تكفّل بالرزق لعباده، فإذا أغلق عنهم باباً فسوف يفتح لهم أبواباً أخرى في ما قدّره للحياة من التوازن الاقتصادي الذي يريد فيه أن يجمع للناس الجانب الروحي والفكري من الحياة بالإضافة إلى الجانب المادي، ليحصلوا على النتائج الإيجابية للواقع من جميع الجوانب. وهذا هو الذي يجب أن يدخلوه في حساباتهم عندما يتحدثون عن موازين الربح والخسارة في الأشياء، فلا يتعقدوا من بعض القيود التي يفرضها الله عليهم في تجارتهم، أو التي يحدّد لهم فيها علاقاتهم بالآخرين وبالأوضاع العامة من حولهم ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ من خلال ما يفتحه لكم من مجالات جديدة للرزق والعمل...».[1]

لقد بادرت الآيةُ لرفع خشيتهم واضطرابهم، و لتذكرهم أنَّ "الله هو المتكفل بأمر الرزق من وراء الأسباب المعهودة المألوفة، وحين يشاء الله يستبدل أسباباً بأسباب؛ وحين يشاء يغلق باباً ويفتح الأبواب... يدبر الأمر كله عن علم وعن حكمة، وعن تقدير وحساب..."[2].

---

١ . من وحي القرآن : الآية.

٢ . سيد قطب، في ظلال القرآن : الآية.

وبالتالي فهو وعدٌ من الله جلَّ شأنه؛ سوف يغنيهم من فضله، وهو تبارك وتعالى وفيٌّ بوعده!

لكنه "لم يقل: (سيغنيكم) بل قال: ﴿فَسَوْفَ﴾ وهي تقتضي زمناً سيمر ولكنه زمن قريب؛ لأن الخير الذي سيأتي له أسباب كثيرة كفيلة بتحقيقه، وهذه تحتاج إلى زمن، ولذلك قال: ﴿فَسَوْفَ﴾..."[1].

ابن عاشور: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي أنّ الله يغنيكم؛ لأنّه يعلم ما لكم من المنافع من وفادة القبائِل، فلمّا منعكم من تمكينهم من الحجّ لم يكن تاركاً منفعتكم فقَدر غناكم عنهم بوسائل أخرى عَلِمَها وأحكم تدبيرها..

فذاك ابتلاء، وهذا إغناء سواء أكان بالمادة أم بالقيم، فجميعه يدخل في دائرة مشيئته وعلمه وحكمته، فمشيئته تقتضي إعطاءً أو منعاً؛ إن شاء أعطى، وإن شاء منع، فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.. وهو عليم بما يصلح الأمور أويفسدها ﴿حَكِيمٌ﴾ في وضع الشيء موضعه، فالإعطاء في موضعه والمنع في موضعه.. لتخلص القلوب كلها للعقيدة، ولتنظر النفوس إلى الله تعالى حين تريد عافيةً وتبتغي رزقاً وترجو عطاءً!

وبعد أن يذكر القرطبي أنّ ذلك كان "إعلاماً بأنّ الرزق لا يأتي بحيلة ولا اجتهاد، وإنما هو فضل الله" يروي للشافعي:

---

١ .تفسير خواطر، محمد متولي الشعراوي (ت١٤١٨هـ) بتلخيص.

**لو كان بالحيل الغنى لوجدتني* بنجوم أقطار السماء تعلقي**

**لكن من رزق الحجا حرم الغنى * ضدان مفترقان أي تفرق**

**ومن الدليل علىالقضاء وكونه*بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق**

وهكذا هي العقيدة الحقّة، وكيفية بنائها، والإخلاص لها، وهكذا هو منهجها الفريد في تربية الجماعة المسلمة، وانتشالها من كل ما يمت إلى الجاهلية ومظاهرها وتأثيراتها من خلال ما يبثه المنهج القرآني من وعي لحقيقة الفوارق والفواصل بين منهج الله الذي يجعل الناس كلهم عبيداً لله وحده، ومنهج الجاهلية الذي يجعل الناس أرباباً بعضهم لبعض.. وهما منهجان لا يلتقيان.. ولا يتعايشان.[١]

* * *



١ . في ظلال القرآن : الآية. بتلخيص.